



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٢٨٣

الجمهورية العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا التاريخية

جہاد الغمانيين ضد الزنطيين في فتح القسطنطينية

٧٥٥ - ٨٥٧ هـ / ١٣٥٤ - ١٤٥٣ م

رسالة مقدمة

لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

١٤٠٢/١٠/١٠



بإشراف

الأستاذ الدكتور حسن بن محمد ربيع



رسالة الطالب

المعظم بالله الدكتور هاشم بن عوط

١٨٥

عام ١٣٩٩ - ١٤٠٠ هـ

١٩٧٩ - ١٩٨٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التمهيد

(أ)

اعتلده كثير من الباحثين في الدراسات التاريخية أن يطمسوا صفحة الدولة العثمانية التي أعتز حكامها بالاسلام فأعزهم ورفع من شأنهم بمقدار ما بذلوا فيه من جهود وتضحيات لينشروه بين الناس .

وجهاد العثمانيين ضد البيزنطيين من الصفحات المشرقة في التاريخ الاسلامي التي خلدها العثمانيون الاوائل على صفحات الزمن جيلا بعد جيل . فقد كان القرآن الكريم في يمينهم والسيف في شمالهم حتى بلغوا بالاسلام حدودا ومناطق لم يكن ليصل اليها لولا جهود السلاطين الاول من بني عثمان .

فهؤلاء الأبطال الذين عاشوا للاسلام ، وباسم الاسلام قد حققوا بجهودهم وإيمانهم وتضحياتهم ما كان أملا قائما في أذهان المسلمين السابقين وهو القضاء على دولة الروم وفتح القسطنطينية .

ولاشك أن العثمانيين أحيوا فرض الجهاد الديني بعدما كاد المسلمون أن ينسوه في فترات الضعف والخلاقات التي مزقت وحدة الدولة الاسلامية ، وبقي فرض الجهاد مطمورا في صفحات الكتب ، يمر به المسلمون دون أن يعرفوا أنه كان حقيقة واقعة في كيان المسلمين . ولما أراد الله للاسلام أن ينتصر ، ولرايته أن تملأ ، ظهر العثمانيون ليحيدوا للاسلام عزته وكرامته ، فوجهوا أنفسهم للقتال في سبيله ، وعاشوا من أجله ، آخذين على أنفسهم أن يحيوا

(ب)

مجده الخابر ، وعلنوا للأجيال المتعاقبة انهم فتية آمنوا بربهم ، وأن الدين الاسلامي ليس سطورا طويت في بطون الكتب ، وانما هو دين ودولة .

وما زال العثمانيون يصرون على النصر ضد أعداء الدين حتى حققوا الحلم الذي راود المسلمين الأول ، وحاولوا تحقيقه مرارا ، حتى أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر بطولات عثمانية ، مازالت تدق أبواب القسطنطينية حتى ركعت خاشعة ، تحت أقدام المسلمين ، وفتحت أبوابها للغزاة الفاتحين ، وكان لابد من البحث في مقومات هذه الدولة العثمانية ، وما ملكته من قدرات وما انطوت عليه قلوب قادتها من حوافز ، حتى تم القضاء على الدولة البيزنطية أو دولة الروم .

ومن المشكلات التي واجهت البحث في موضوع جهاد العثمانيين ضد البيزنطيين قلة المصادر والمراجع ، حتى أخذت طريقى الى استنبول للبحث في مكتباتها عن مصادر توضح حقيقة هؤلاء القوم ، وتكشف الغطاء عن تاريخهم . وكان من توفيق الله سبحانه وتعالى أن عثرت على كثير من المصادر والمراجع التاريخية التي استخلصت منها المادة العلمية لموضوع البحث .

وتحتوى الرسالة على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ، وقد درست المقدمة مقومات حركة الجهاد العثماني ضد البيزنطيين خاصة الطبيعة العسكرية الصارمة التي طبع عليها العنصر التركي وأثره في حركة الجهاد العثماني ، والدوافع الدينية التي دفعت العثمانيين لاقتحام أوربا ، والجهاد في سبيل الله

(ج)

وفتحهم القسطنطينية معقل المسيحية الأرثوذكسية .

أما الفصل الأول وعنوانه استيلاء العثمانيين على غاليلولى وبداية التوسع العثماني في البلقان فقد ناقش عوامل اضمحلال الدولة البيزنطية عند منتصف القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، ودور مدينة غاليلولى فى جهاد العثمانيين ضد البيزنطيين ، واستعانة الامبراطور البيزنطى حنا الخامس بالغرب الأوربى ضد الدولة العثمانية .

ومحت الفصل الثانى وعنوانه (العثمانيون وحركة الالتفاف حول القسطنطينية) عملية الالتفاف العثماني التى بدأت باستيلاء العثمانيين على أدرنة ، واتخاذها عاصمة للدولة العثمانية فى أوروبا سنة ٧٦٦ هـ / ١٣٦٥ م ، ~~وقبل~~ ذلك فتح العثمانيين لمقدونية سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م وانتصارهم فى معركة قوصوه (كوسوفا) .

وناقش الفصل الثانى أيضا أثر معركة قوصوه فى تاريخ الجهاد العثماني ضد البيزنطيين ، اذ أدت هذه المعركة الى تكوين حلف صليبي أوربى ضد الدولة العثمانية ، وانتصر العثمانيون على التحالف البيزنطى الأوربى فى موقعة نيقمولىس سنة ٧٩٨ هـ / سنة ١٣٩٦ م .

وعالج الفصل الثالث موضوع جهاد السلطان مراد الثانى ضد البيزنطيين

- حيث قام العثمانيون فيه بحصار القسطنطينية سنة ٨٢٥ هـ / سنة ١٤٢٢ م .
- واستعانة الامبراطور البيزنطي حنا الثامن بالقوى الأوربية ضد العثمانيين .
- وبحث الفصل الثالث أيضا مقدمات وأسباب ونتائج هزيمة حملة صليبية أوربية في موقعة وارنة (فارنا) سنة ٨٤٨ هـ / سنة ١٤٤٤ م .

وناقش الفصل الرابع وعنوانه السلطان محمد الفاتح وفتح القسطنطينية -
أحوال الدولة البيزنطية قبيل حصار العثمانيين للقسطنطينية ، وما أعـلـمـه
السلطان محمد الثانى من استعدادات لفتحها ، وموقف القوى الأوربية
من الفتح العثمانى الاساسى للقسطنطينية ، وأخيرا انتصار الاسلام وسقوط
القسطنطينية .

وفي نهاية الرسالة جاءت الخاتمة التى ذكر فيها أهم نتائج البحث .

ولا يسعنى الا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذى الأستاذ الدكتور
حسنين محمد ربيع فهو المشرف على هذه الرسالة ، وهو لم يدخر وسعا فى
مساعدتى ولم يخل على بنصائحه وارشاداته وتوجيهاته طيلة البحث فجزاه
الله عنى بما يجزى به عباده المخلصين .

وانى فى هذه المناسبة أستمطر رحمت الله وأسأله رضوانه للمرحوم الأستاذ
الدكتور محمد كمال الدسوقي الذى كان له الفضل فى توجيهى لهذا الموضوع .

(ه)

كما أتوجه بالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور محمد حمدي المناوي لمساعدته
القيمة لي .

كما أتوجه بالشكر للقائمين على كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، في
شخص عميدها السابق سعادة الدكتور محمد بن سعد الرشيد ، وعميدها
الحالي سعادة الدكتور عليان محمد الحارثي ، لاتاحتها الفرصة لـ
ولأمثالي من طلاب العلم لمتابعة الدراسات العليا .

والله أسأل السداد والرشاد . .

الطالب

المحتصم بالله ابراهيم شعوط

المقدمة

مقومات حركة الجهاد العثماني ضد البيزنطيين

- أثر الموقع الجغرافي للعثمانيين بالنسبة لموقع الدولة البيزنطية .
- الطبيعة العسكرية الصارمة التي طبع عليها العنصر التركي .
- الدوافع الدينية .

كلمة الجهاد اصطلاح اسلامى له معنى خاص لا ينطبق على الحروب وأنواع القتال الذى يدور بين دولتين أو جيشين ، يريد أحدهما التغلب على الآخر ، وإنما مفهوم الجهاد فى الاسلام أنه دعوة الى عقيدة ، وإلى دين سماوى يراد نشره على الناس ليخرجهم من الظلمات الى النور ، وليس المقصود منه الغلبة أو السيطرة بالقوة وإنما تنتهى مهمة المجاهد فى الاسلام بدخول من يحاربهم فى الدين الجديد أو خضوعهم للداعين لهذا الدين .

والجهاد العثمانى ضد البيزنطيين قائم على مبدأ نشر الاسلام ، والدعوة اليه . (١) ونجح العثمانيون فى كل حملاتهم لنشر الاسلام لتوفر عدة عوامل مكنتهم من نشر دعوة الاسلام على مساحات واسعة فى أوروبا . وهذه العوامل هى مقومات الجهاد الذى عرف به العثمانيون .

ويذكر المؤرخون أن العثمانيين من الجنس التورانى ، ينسبون الى عشيرة قابى من قبائل الغز التركمانية ، وكان أقدم زعيم معروف لهذه العشيرة

(١) على سفيم : الأتراك والاسلام ، ص ٧ ، عبد العزيز الشناوى ، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٥٤٣ .

(١) هو سليمان شاه * وخرجت هذه القبيلة هاربة من وجه الخطر المفولى تحت رئاسة زعيمها سليمان شاه للبحث عن مواطن العشب ، والمأوى حتى استقروا أخيراً بجبهات أذربيجان ، غربى بحر الخزر (قزوین) حيث مكثوا بضعة سنين .

ثم خرج سليمان بقومه فى طريق العودة الى موطنه الأسمى ، بعد هدوء العاصفة المفولية ، ولكن سليمان شاه غرق أثناء عبوره نهر الفرات ، واختلف أبناءه من بعده ، وشرقوا فى البلاد ، بعد أن انقسموا الى طائفتين فذهبت الطائفة الأولى ، وهى الأكثر عدداً مواصلة سيرها نحو خراسان بقيادة سليمان وسنقور وتكين ، وهذه لم يذكر التاريخ شيئاً عنها .

وسار أحد أبناء سليمان شاه واسمه أرطغرل ، ومعه عشيرته فى الطائفة الثانية باتجاه الغرب الى الأناضول . وكانت قوات أرطغرل تشمل أربع مائة

(١) محمد بن أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، مخطوط ، ورقة ٢ .

زين الدين مرعى بن يوسف المقدسى الخبلى : قلائد العقيان فى فضائل آل عثمان ، مخطوط ، ورقة ٤ .

اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٣ . محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١١ .

بيت من قومه ، بينهم نحو ٤٤٠ فارساً ، واجتهد أرطغرل في مواصلة السير حتى انتهى به المطاف على هضاب آسيا الصغرى . (١)

ساعد أرطغرل وعشيرته السلطان علاء الدين السلجوقي سلطان سلاجقة الروم ضد المغول حتى تم لهما النصر ، وكافأه السلطان علاء الدين السلجوقي بأن منحه وعشيرته اقليم اسكى شهر على حدود الدولة البيزنطية . ولعل في اختيار هذا المكان على تخوم أملاك الأعـداء البيزنطيين ما دعا السلطان علاء الدين لاستغلال شجاعة هذه القبيلة التركية في رد اغارات الدولة البيزنطية ضد السلطنة السلجوقية . ومنذ ذلك العهد اتجهت أطماع الدولة الجديدة الى اتخاذ هذا الموقع منطلقاً للغزو ، والفتح ، والتوسع في أملاك البيزنطيين . (٢)

ثم جاء من بعده ابنه عثمان فنقل مقر ملكه عام ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م من

(١) البكرى ، المنح ، ورقه ٢ ، سرهنگ ، حقائق الأخبار ، ص ٤١٣ ، سير توماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ص ١٢٠ ،

Gam. Med. Hist. Vol.4, p.655.

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج ٣ ص ١٣٠

(١) سكود الى ملانجتون التي تقع الى جنوب سكود بعد أن فتحها وجعل اسمها (قره حصار) . (٢)

ومنذ ذلك العهد احتلت اماره عثمان مركزا استراتيجيا يتحكم في الطرق القادمة من القسطنطينية الى آسيا ، ولهذا السبب ، ومن الموقع الممتاز ، استطاع العثمانيون أن ينجحوا (٣) في غزواتهم لأوربا . ثم جاء عهد أورخان ابن عثمان ، ففتح مدينة بروسا التي لا تبعد عن شاطئ بحر مرمرة أكثر من ثلاثة عشر ميلا ، حيث يطلون منها على الدولة البيزنطية ، ويعرفون عوامل ضعفها ، والاضطرابات التي تحدث فيها ، وظلت بروسا عاصمة الدولة العثمانية طوال أربعين سنة ابتداء من عام ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م فكان انطلاقهم منها الى أوربا دون التحرق بالقسطنطينية . (٤)

(١) سكود : بلدة صغيرة ، وقصبة قضاء يحمل الاسم نفسه في سنجق أرطغرل من أعمال ولاية خداندكار في آسيا الصغرى ، وهي الى الجنوب من سقاريا بين لفته واسكى شهر ، وعلى مسيرة يوم من كل هذين الموضعين . وتقوم سكود عند مدخل مر جبللى ، غاية في العمق والضيق ، وقد شيدت على مدرج ، والمنطقة التي تحيط بالمدينة جزء من الاقليم الخصب الذي هو مرحلة انتقال بين سهل الأناضول الاوسط في الجنوب والارض التي على جانب المجر الاسفل لنهر سقاريا في الشمال ، وهي مشهورة في التاريخ العثماني بأنها كانت مهد سلطان آل عثمان . (دائرة المعارف الاسلاميية المجلد ١٢ ، ص ٣٨٩) .

(٢) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٠ .

(٣) هسي العالم البيزنطى ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

(٤) فيليب حتى ، خمسة آلاف سنة في تاريخ الشرق الأدنى ، المجلد الثاني ، ص ١١ .

وكانت الطبيعة العسكرية التي طبع عليها العنصر التركي ، هي موضع اتفاق المصادر التاريخية التي تذكر أن العنصر التركي كانت سمته الشدة ، والصبر على تحمل المشاق ، لمراقبتهم في البداوة ، وتشعث مواطنهم ، ووعورة المسالك فيها ، ثم ازدادوا بأسا باستسلامهم لحياة الجندية ، وعشقهم لها حتى صارت القوة هي المثل الأعلى لهم . (١) وقد انفرد الشعب التركي بمزايا اختص بها من بين الشعوب ، حيث كان شعبا ناهضا ، متحمسا ، طموحا ، تبدو فيه روح الجهاد لقرب عهده بالفطرة والبساطة في الحياة . (٢) كما أنهم استمدوا هذه الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية في سهول آسيا الصغرى . ثم بعد ذلك عمل السلاطين العثمانيون على تعميقها في نفوسهم ، فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل عبر القرون التي حملوا فيها السلاح . (٣)

ولقد ذكر المؤرخون الأوربيون أن أول ما يلفت الأنظار في الأتراك العثمانيين هو روح الانتظام ، والتربية العسكرية الصارمة ، ولقد حرصوا على ذلك كل الحرص حتى جعلوا عقوبة الإعدام جزاء من تسول له نفسه ارتكاب جريمة التأخر ، أو العصيان . وقد صارت القوة عندهم هي المعيار

-
- (١) محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، ج ٢ ص ١٤٠ .
(٢) أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٦٠ - ١٦١ .
(٣) الشناوي ، أوربا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ص ٥٢١ .

الأول لتقوم الفرد ، فبحسب قوته ما ينال من نفوذ ومكانه ، ولا أهمية
لسن ، ولا نسب ، والفخار كل الفخار لمن يموت في ساحة القتال . (١)

كانت هذه هي صفات العنصر التركي المنتزعة من البيئة الأولى لهم ،
وقبل أن يكون العثمانيون جيشهم من تلك العناصر وغيرها .

ومما أضاف للدولة العثمانية قوة وزادها هيبة ، النظام الجديد الذى
وضعه أورخان لتكوين جيش جديد على نظام جديد ، هو نظام الانكشارية
الذى فى ظله أنشئت فرقة قوية من فرق المشاة قامت على عدد من الأطفال
الصفار من الرعايا المسيحيين . فكان هؤلاء الأولاد الذكور يوضعون
فى ثكنات ويبرون تربية اسلامية ، ويدربون تدريبا عسكريا جيدا على الحرب
مشاة ويجيدون استعمال السيف ، والقوس ، ويتحركون فى مجموعات متراسة
لم يستطع أى عدو أن يمزقها ، أو يشتتها ، دهورا طويلة ، كما كان
النظام البدنى ، والخلق الذى وضع للانكشارية متينا جدا ، حتى انه
لم يعرف عن أحد منهم أنه اعتزل ، أو تخلص عن منصبه . (٢)

(1) Cohun: L'introduction a l'histoire de l'Asie, pp. 19 - 20.

(٢) أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٤٨ .

ومع هذه القوة البشرية ، والروحية التي امتاز بها (البني شريه)
الانكشارية ، فان الدولة كانت تعلم تماما أن القوة الحربية لا تستطيع
بسط سيطرة الاسلام روحيا ، وماديا ، الا اذا كان لديها من الأسلحة
ما تقهر به خصوم الاسلام . ومن أجل ذلك يادر العثمانيون في صدر
دولتهم الى استعمال المعدات الحربية الحديثة مثل استعمال النار ،
والبارود ، والعناية بالمدافع ، فأصبح في أيديهم أحدث آلات الحرب .^(١)

والواقع أن العثمانيين قد نجحوا في بناء هذه القوة العسكرية
(الانكشارية) حين أقاموها على أساس نظام الاسلام في التربية العسكرية
وفق منهج مدروس من الاسلام فصارت نموذجا غريبا ، حيث أصبح الجندي
من هذه الجنود الذين جلبوا من غلمان النصارى لا يعرف له أب ، الا السلطان ،
ولا دين الا الاسلام ، ولا كتابا الا القرآن ، ولا عملا الا الجهاد ، وأعماله
كلمة الاسلام ، وقد استمر نظامها على جانب كبير من الكفاية ثلاثة قرون
قبل أن يتسرب الضعف للدولة العثمانية .^(٢) ويرجع الفضل في تكوين هذه
الفرق الى السلطان أورخان — كما سبق القول — حيث وضع خطة جديدة
لتكوين جيش جديد فأعلن أن للمسيحيين الذين خضعوا للحكم التركي حريسة

(١) أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين ص ١٦٠ —

(٢) أنور الجندي : الاسلام وحركة التاريخ ، ص ٣١٢ ، ٣١٥ ، عبد العزيز
سليمان نوار ، الشعوب الإسلامية ، ص ٣٢ ، ٣٣ ، فيشر ، تاريخ أوروبا
العصور الوسطى ، ق ٢ ، ص ٤٤٧ — ٤٤٨ .

العبادة في نظير أن تكون الجزية التي يقدمونها للدولة مجموعة من الأطفال ينشأون تنشئة اسلامية ، ويربون تربية دينية ، يذوقون فيها حلاوة الاسلام ، يؤمنون به ، ثم ينضمون بعد ذلك الى الحرس الامبراطورى (البنى شريفة) المشهورة ، أو يلتحقون بالخدمة المدنية . (١)

ولما كانت فرق الانكشارية هي فرق النصر والمجد للدولة العثمانية فقد لفتت أنظار المؤرخين ، والباحثين من الأوربيين ، وجعلوها موضوع بحوثهم ، واهتمامهم ، فأصدروا عليها أحكاما مختلفة ، منها ما يمدح فيها الاعجاب بشجاعتهم ، وحسن نظامهم ، وطريقة تربيتهم ، ومنها ما يظهر فيه التحامل على هذه الفرق ، ووصفها بالقسوة ، والغلظة ، والبطش بخصوم الدولة في ميادين القتال .

ونذكر على سبيل المثال آراء بعض المؤرخين الأوربيين في تقويم الوسيلة التي اتبعت في تنشئة تلك الفرق ، فيرى المؤرخ الألماني بروكلمان أن تدريبهم كان يلتزم المبادئ الإنسانية الى أبعد الحدود على الرغم من صرامته ، ولا غرابة في ذلك فقد كانت الدولة تقصد أن تخلق منهم رجالا شجعاناً لا جبناء . (٢)

(١) جون هامرتن ، تاريخ العالم ، المجلد الخامس ، الخبر ١٩ ، ص ٤١٠ .

(٢) بروكلمان ، الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، ج ٣ ص ٨٣ .

ولكن المؤرخ الانجليزى فيشر ذكر أن (البنى شرية) الانكشارية
نشأوا أرقاء ، أو أشباه أرقاء ، متجردين من جميع المؤثرات السلمية
الانسانية ، التى تهذب الطباع ، محرومين من جميع الصفات المكتسبة
التي تفتح العقول بعيدين عن جميع المثل العليا التى تحرك الإرادة ، ذلك
أن البنى شرية تعلم أن ينسى أباه ، وأمه ، وأخوته ، وأقاربه ، وأن يمشى
دون أمل ، فالثكنة العسكرية مأواه ، والحرب مهنته ، والقرآن عقيدته
وما عليه إلا أن يرضى فى قتال الأعداء ، أعداء السلطان ، وأعداء الله
بروح رهبانية ملؤها حماسة متأججة وتعصب ركيك . (١)

واننا اذا دققنا النظر فى هذه الآراء نجد أنها كلها تلتقى عند وصفهم
بالبطولة والشجاعة النادرة ، وأن أول ما يلفت الأنظار فى الأتراك (١) روح
الانتظام ، والتربية العسكرية الصارمة ، وقد حرصوا على ذلك كل الحرص ،
وكانت الصفات الخلقية للشخص التركى تضاف الى قوة الجيش العثمانى كجموع ،
فقد كان ممنوعا فى المعسكرات العثمانية الخمر ، والنساء ، والمقامرة ،
وفالبا ما يقضى الرجال أوقات فراغهم فى الصلاة ، وفوق هذا كله كانت الطاعة
هى أعظم ما يتحلقون به وإيمانهم العميق أنهم انما يقاتلون من أجل الحق ،
ولتحقيق هدف مقدس للإسلام ، لا وهو الجهاد فى سبيل الله ، مما شجع

(١) فيشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ق ٢ ، ص ٤١ .

(1) Cahun: op. cit, p. 60.

الرجال على أن لا يخشوا الموت الذى كان يمنحهم تاج الشهادة فى سبيل الله ،
والفردوس الدائم . (١)

وهناك عامل آخر له أهميته العظمى فى المقومات العسكرية لجبهــة
العثمانيين ، وهو وجود عدد كبير من الشخصيات ذات القدرات المتفوقة
فى مجال القيادة العسكرية ، والحكمة الواضحة فى النواحي الادارية ، فان
قرونا ثلاثة فى تاريخ العثمانيين قد ظهرت فيها عبقریات عثمانية هى التى خلدت
هذه الدولة على صفحات التاريخ . فقد أظهر عثمان مقدرة فائقة فى وضع
النظم الادارية لامارته بحيث قلع العثمانيون — على عهده — شوطا بعيدا
فى طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة الى نظام الادارة المستقرة مما
ساعدها على توطيد مركزها ، وتطورها تطورا سريعا الى دولة كبرى ، واعدادها
للدور الضخم الذى قامت به بعد ذلك . (٢) ويمكن أن ننسب أول فضل فى
تأسيس الامبراطورية العثمانية الى صفات السلاطين الشخصية ، فقد توالى
تسعة من السلاطين فى فترة دامت مائتين وخمسا وستين سنة من بداية الدولة
العثمانية الى موت سليمان القانونى — فكانوا سلسلة فذة من الأمراء
المحاربين الجادين ، الذين فرضوا على رعاياهم الطاعة ، وألوا قلوب

(1) Atiya: The Crusade in the later Middle Ages, pp. 448-449.

(٢) الشناوى ، أوروبا فى المصور الحديثة ، ص ٥٢٢ — ٥٢٣ .

(١)
أعدائهم بالرعب والفرع .

والسلطان أورخان الذى سن للدولة قوانين لم تكن موجودة من قبل ،
ورسم لها الطريق السوى الذى ضمن لها حب الرعية ، وتعلق خصومها
واعجابهم بها ، كما نظم أقوى جيش فى عصره ، على أسس تضمن ولاء
الجند للدولة وتجعلهم يبذلون حياتهم كلها فداء للسلطان ودولته فكانت
فرق الانكشارية — كما سبق القول — هى درع الدولة الذى يحميها ويحقق
لها النصر فى كل ميدان ، كما كانت مبادئ هذه الفرق هى رفع راية
الاسلام ونشره بين مسيحي أوروبا بالمثل والسلوك الجاد وحسن المعاملة
حيث أنه لم يعارضهم فى إقامة شعائرهم الدينية . (٢) ووطد أورخان دعائم
العثمانيين فى غاليلولى أول مدينة عثمانية فى قارة أوروبا المسيحية ، واتخذ
منها مطلقا للفتح فى أوروبا ، بعد أن كانت حروب الدولة السابقة داخل
شبه جزيرة آسيا الصغرى ، وبذلك بدأت الفتوحات الاسلامية فى القارة
الأوربية ضد الدولة البيزنطية على الأرض الأوربية المسيحية . (٣)

(١) ادوارد جيمون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج ٣ ، ص

٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٢) محمد فريد ، الدولة المحلية ، ص ٤٣ .

(٣) البكرى ، المنح ، مخطوط ، ورقه ٣ .

S.Lane-Pool: Turkey, p. 34.

وكذلك كان من أعلام هذه الدولة العثمانية السلطان مراد الأول الذى عرف عنه ايمانه العميق وشدة تحمسه لنشر الدين الاسلامى فى أنحاء أوربا المسيحية ، وقد اشتهر بصوته الجمهورى الذى كان يحس به جنده فى ساحات القتال ويدعوهم له باسم الله سبحانه وتعالى ، وباسم الاسلام ، والجهاد فى سبيله ، وكانت تهليلاته هذه تملأ نفوس جنوده بالحماس وتدفعهم الى استرخاض الأنفس وما يملكونه فى سبيل الله ، حيث كان يطمح فى القضاء نهائيا على سيطرة الدولة البيزنطية ، فهو فاتح أدرنة المدينة الثانية فى الدولة البيزنطية ، كما تشهد له معركة قوصوه على ربح الجهاد فى سبيل الله ، ونشر دينه الخيف . (١)

فاذا جاوزنا السلطان مراد الأول الى السلطان بايزيد الأول نجده قد وطد مركز العثمانيين فى البلقان . (٢) وكان رحب الصدر ، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين ، وسمح لهم بالتردد على مجلسه فى حرية كاملة مما جعلهم يألفونه ألفة تامة . (٣) وعرفت شجاعته ، وخبرته فى القتال حينما تجلت شجاعته هذه فى فتح الإمارات التركية فى آسيا الصغرى ، وفتح

(1) The Cambridge History of Islam, I. The Central Islamic Land, pp. 275-276.

(2) Vasiliev: History of the Byzantine Empire, p. 629.

(٣) توماس أرنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ص ١٢٣ .

(١) بلغاريا كلها سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م . ومن بعدها نجده يحقق نصرا مؤزرا في موقعة نيقوبوليس ذات الشهرة الكبرى في المواقع الحربية بين البيزنطيين ، والعثمانيين سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م . ويصفه ابن حجر المسقلاني بأنه " أعظم ملوك العالم " كان مهوب الجانب ، يحب العلم والعلماء ، ويقدر كل من كان له المام بعلوم القرآن ، (٢) وكان لا يمكن أحدا من التعرض لمال أحد من الرعية حيا أو ميتا ، وكان الأمن فاشيا في بلاده بحيث يمر الرجل بالحمل مطروحا بالبضاعة فلا يتعرض له أحد ، وكان يشترط على كل من يخدمه أن لا يكذب ولا يخون . (٣)

ثم يأتي دور السلطان محمد الأول المسمى محمد جلبي ، واستطاع هذا السلطان بفضل صبره وجلده أن يعيد السيادة العثمانية على الأقاليم التي استغلت فرصة الغزو المغولي فخرجت عن طاعة الدولة العثمانية . وهو الذي واصل جهوده العظيمة لاتمام بناء دار للسفن في غاليبولي حتى يستطيع مواجهة أعداء الدولة بحريا اذا لزم الأمر . (٤) وأطال السلطان محمد الأول في عمر الدولة العثمانية حتى أتى السلطان مراد الثاني الذي استطاع القضاء على الفتن الداخلية في الدولة العثمانية ، وكذلك حصار القسطنطينية

(1) Ostrogorsky: History of the Byzantine state, p. 489.

(٢) ابن حجر المسقلاني ، أبناء الفخر بأبناء العمر ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ،
Atiya: op. cit, p. 449.

(٣) ابن حجر ، أبناء الفخر ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

(٤) كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٢٨ .

(١) محاولا فتحها ، وهو فاتح مدينة سالونيك ، والسلطان مراد الثانى هو المقاتل الشجاع الذى قاتل هونياد المجرى وانتصر عليه فى موقعة فارنا (وارنسه) الشهيرة سنة ٨٤٨ هـ / سنة ١٤٤٤ م . (٢)

ثم جاء السلطان محمد الثانى فاتح القسطنطينية الذى كان يملك شخصية فذة عظيمة ، فقد تفوق على كل أقرانه منذ حداثة وهو يتلقى العلم فى مدرسة الأمراء ، وكان مغرما بتعليم اللغات ، كما كان شاعرا مجيدا ، جمع حوله كبار الشعراء من جميع أنحاء العالم الاسلامى . (٣) وكان يحرص على النظام والمواعيد ، فلم يكن يسكت على أى إهمال ، أو تأخير فى أى عمل من الأعمال ، المدنية ، أو العسكرية ، على حد سواء ، وقد قضى السلطان محمد الثانى السنة الأولى من حكمه فى إعادة تنظيم دواوين الحكومة ، ومصالحتها المختلفة ، وخاصة النواحي المالية ، والتى عمد الى تقليل البذخ والانفاق فيها ، واهتم بالسجلات الخاصة بالجيش ، وزاد رواتب الجنود ، ووجه عنايته أيضا الى حكام الأقاليم ، فرفع منهم البعض الى أعلى المناصب ، وعاقب المقصوين ، واستبدل البعض منهم ، وقد تم كل ذلك بروح من الدبلوماسية والقدالة ، مما جعل الجميع يشنون على كفاءته ، ومقدرته . (٤)

(1) Stavrianos: The Balkans Since 1453, p. 51.

(٢) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٧ .

(3) Alderson: The structure of the Ottoman Dynasty, p.123
Lane-Pool: Turkey, p. 101.

(٤) كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٣١ ،
Alderson, op. cit. p. 123.

هؤلاء كلهم ظهروا بمواهبهم العسكرية التي ورثوها بالفطرة عن آبائهم وأجدادهم وقد لازمتهم هذه الصفة في كل أدوار حياتهم . ومن أجل ذلك كان السلاطين العثمانيون حريصين على أن يقودوا الجيوش بأنفسهم ، ويديروا دفعة الممارك بمهارة فائقة في كل معركة خاضوها مع خصومهم ، خصوصاً الاسلام الذين أوقفوا أنفسهم لنشره وإعلاء كلمته ، حيث كان السلاطين حريصين على تدعيم السلطة الدينية سلطة شيخ الاسلام كما كانت الدولة تهتم اهتماماً بالغاً بنشر التعبئة الروحية بين الجنود قبل خوض المعركة .^(١)

أما الدوافع الدينية فتتمثل في اعتناق العثمانيين للاسلام وتحمسهم لنشره في كل مكان ، وفي التربية الدينية التي طبعتهم بالطابع الاسلامي الصحيح وأيضاً في ظهور الحماس الديني بين أفراد الجيش العثماني بشكل ملحوظ . فنحن نقرأ عن العثمانيين انهم وضعوا أمام عيونهم من أول الأمر اقتفاء أثر الخلفاء الراشدين في التقوى والقناعة والاحسان ، ولم تكن هذه الصفات خاصة بواحد من السلاطين العثمانيين بل تداولها السلاطين الأول واحد بعد واحد .

(١) الشناوي ، أوربا في مطلع الحصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٥٤١-٥٤٣ .
(٢) كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ١٤ - ١٥ ، محمود محمد زيادة : دراسات في التاريخ الاسلامي ، ص ٥٧٠ - ٥٧١ .

أما عن أسلوب السلطان عثمان في جمع القلوب حوله فانه عمل على تقريب العلماء والأتقياء وأنشأ لهم مدارس ورتب لهم لقاءات يجتمعون فيها ، وبلغ من حبه ، واحترامه للعلماء ، أن حرص على مصاهرتهم فتزوج من ابنة (الشيخ اده بالي) تبركا بتقواه . (١) أما حياة عثمان الشخصية فكان متقشفا ، زاهدا ، منصرفا عن متاع الدنيا ، عزوفا عن جمع المال وعندما مات لم يخلف إلا شعرا ومزركشا ، وعمامة ، ومضع قطع من الحرير ، ومخض الخيول ، وقطعا من النعم . (٢)

فاذا جاوزنا السلطان عثمان الذي ترك وصيته لابنه أورخان ينصحه فيها بالحرص على الدين ، واحترام العلماء ، والشفقة على الرعية ، ومداومة الجهاد ، فنجد أن أورخان يقوم بتنفيذ هذه الوصية تنفيذا دقيقا حتى اشتهر بالتقوى والاحسان (٣) .

ودرج السلاطين العثمانيون على سنة آبائهم من الحرص على الناحية

(١) محمود شيت خطاب ، مقال في مجلة رابطة العالم الاسلامي ، محمد الفاتح ، رمضان سنة ١٣٩٧ هـ ، العدد التاسع ، السنة ١٥ ، ص ١٩٠ .

(٢) بيهم ، فلسفة التاريخ ، ص ١٣١ ، فيشر ، أوروبا العصور الوسطى ، ق ٢ ، ص ٤٤٦ .

(٣) تاريخ جودت باشا ، ج ١ ، ص ٣٩٠ .

الدينية ، وإذا فرط واحد منهم في المظهر الديني فإن العلماء كانوا ينبهون السلطان كما حدث مع السلطان مراد الأول الذي لم يكن حريصا على صلاة الجماعة ورفض القاضي شهادته لأنه لا يصلح جماعة مما حمل السلطان مراد الأول على أن ينشئ في مدينة أدرنه المسجد المعروف باسمه تكفيرا عن ذنوبه .^(١) وظلت روح الاسلام مهيمنة على تصرف العثمانيين حتى بعد أن تمكنت منهم روح الحضارة ، وأخذتهم طبيعته الملك .

وتعتبر سياسة التسامح الديني التي اتبعها العثمانيون من مقومات حركة الجهاد العثماني ضد البيزنطيين ، فمنذ الأيام الأولى التي قام العثمانيون فيها بتوسيع مملكتهم في آسيا الصغرى توطدت العلاقات بين الحكومة الاسلامية والكنيسة المسيحية على أساس ثابت وحاول العثمانيون استمالة المسيحيين بعقد أواصر المصاهرة معهم ، فقد اختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيليقياء ، كما زوج ابنه أورخان من فتاة مسيحية كما اتخذ ميخائيل ذلك اللحية نائبا له في ميادين الحروب .^(٢) وكانت الدولة العثمانية تعامل المسيحيين كأغز أبنائها المسلمين . ولم تميز بين هؤلاء وبين المسلمين ،

(1) Jouannin, Vangaver: L'univers Turquie, pp. 32-38.

(٢) فيشر ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ق ٢ ص ٤٤٦ .

وسلكت مع الجميع طريق المساواة وعينت الكثير من المسيحيين فى المناصب السامية والوظائف العالية واثمنتهم على أمورهم ، وجعلتهم محلاً لثقتهم . (١)

وهذا اثمرت سياسة التسامح ثمرتها المرجوة فى تعلق الرعايا المسيحيين بالدولة العثمانية ، وصاروا يفضلون عيشهم فى ظل العثمانيين على بقائهم تحت سلطان الدولة البيزنطية ، ويتضح ذلك من العبارة التى تناقلها المسيحيون عن لوكاس ناتوراس الزعيم الدينى البيزنطى حيث قال " انه لخير لنا أن نرى العمامة التركية فى مدينتنا (القسطنطينية) من أن نرى فيها تساج الباهوية " . (٢)

وحينما تطلو مكانة رجال الدين فى أى دولة وتكون لهم الحظوة عندا لحاكبين دل ذلك على رغبة الملوك والسلاطين فى سيطرة الشريعة الاسلامية ، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ومخاصة فى الدول التى رفعت راية الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا فى كل مكان . وكان هذا الاتجاه معروفاً فى الدولة العثمانية عند قيامها حيث كان أمل العثمانيين أن يقوموا بالدور الذى قام به العرب فى صدر الاسلام . (٣)

(١) محمود زيادة ، دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ص ٥٩٦ .

(٢) نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ملحق ٢ ، ص ٣٩١-٣٩٢ ، رزق الله

منقريوس الصرفى ، تاريخ دول الاسلام ، ص ١٠٧ .

Mijattovich: The Emperor of the Greeks. p. 45 FF; The Cam. Hist. of Islam, I, p. 288 FF.

(٣) بيهم ، فلسفة التاريخ العثمانى ، ص ١١٩ ، فائق الصواف ، العلاقات

بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٩ - ٢٠ .

ومن أجل ذلك حفظوا لرجال الدين مكانتهم من أول الأمر حيث كانت السلطة العثمانية العليا موزعة بين طبقتين هما الطبقة العسكرية ، وعلى رأسها السلطان وفي يده السلطة التنفيذية ، فوق السلطة العسكرية ، أما الطبقة الثانية فهي طبقة هيئة كبار العلماء وعلى رأسها مفتى الديار وهو شيخ الاسلام ، فكانت لكلمة رجال الدين أهمية كبرى ، وقوة تتلشى أمامها كل الاعتبارات ، كما كانت أحكامهم محل اعتبار كبير من الحاكمين . (١)

وهناك أمثلة واضحة من تصرفات السلطان محمد الفاتح ومعاملته لرجال الدين في دولته ما يطلعنا على المكانة السامية التي تبوأها رجال الدين في عهد الدولة العثمانية حيث كان السلطان محمد الفاتح يقف صافوا متخشعا أمام العلماء ، وأهل الورع ، والتقى ، ويستشيرهم في أخطر أموره ، وينصت الى نصائحهم ، ويتقبلها بقبول حسن ، وينفذ تعاليمهم نصا وروحا لأنهم كانوا يصحبونه في غزواته وحروبه ، حيث كانوا في كل ميدان من ميادين القتال في طليعة الجيش الى جانب السلطان يثيرون الحماسة الدينية ، ويتلون على الجنود آيات الجهاد والنصر ، ولعل ما زاد في همتهم وحمل السلاطين على احترامهم ، وتقديرهم ، أنهم لم يقفوا عند صناعة الكلام يأمرن بالقتال ولا يقاتلون ، بل كانوا يقاتلون في المعركة بجانب الجنود حتى يضربوا لهم أروع الأمثال في الشجاعة ، والاقدام . (٢)

(١) محمد عبد المنعم الراقدة ، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن

العرسى ، ص ٢٣ — ٢٤ ، ص ٤٤ — ٤٥

(٢) الشناوي ، نفس المرجع ، ص ٥٤١ — ٥٤٢ — ٥٤٣

الفصل الأول

استيلاء العثمانيين على غاليبولى وبداية التوسع العثماني في البلقان

- عوامل اضمحلال الدولة البيزنطية عند منتصف القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .
- دور مدينة غاليبولى في جهاد العثمانيين ضد البيزنطيين .
- استعانة الأمبراطور البيزنطى حنا الخامس بالغرب الأوروبى ضد العثمانيين .

كان استيلاء العثمانيين على غاليلولى ومداية التوسع العثمانى فى البلقان نتيجة لاضمحلال الدولة البيزنطية عند منتصف القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، ولدراسة هذا الموضوع لابد من القاء الضوء على عوامل هذا الاضمحلال سواء الخارجية منها أو الداخلية ، أما عن العوامل الداخلية فقد كانت المشكلة الكبرى التى واجهت الدولة البيزنطية ابتداءً من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) هى تعدد الأجناس مع العنصر اليونانى ، ولا يخفى أن تعدد الأجناس فى الإمبراطورية البيزنطية سواء على الصعيد الحسكرى أو الصعيد المدنى أدى الى مشكلة اجتماعية لها خطورتها من حيث الاختلاف فى المادات والتقاليد واللغات والآمال . فلم تكن هناك آمال مشتركة ، ولا مصير مشترك ، ويمكننا أن ندرك خطورة الوضع فى الدولة البيزنطية اذا تصورنا وجود عدد من الأجناس فى أوروبا وهم اليونانيون والسلاف والألبانيون ، والولاخى ، ومثل هذا العدد من جنسيات أخرى فى القسم الآسيوى داخل الإمبراطورية ، وهم اللاتين واليهود والمسلمون والسريان والأرمن وهؤلاء يقيمون فى الحاصصة والأناضول (١) .

وكان من عوامل الاضمحلال من الناحية الداخلية أيضا قوة الارستقراطية المدنية . فقد جاءت عن طريق تركيز قبضة الامبراطورية الادارية والمالية

(1) Vryonis, Byzantium: The Social Basis of Decline in the Eleventh Century, Vol. II, p. 167.

فى العاصمة نفسها ، وجعل الادارة المركزية للجيش فى القسطنطينية .
وهكذا يستطيع المرء أن يتبين نتيجة هذا التباين بين الارستقراطية المدنية
المركزية ، والارستقراطية العسكرية فى الأقاليم . وأنه كان سببا فى اندلاع
الحرب الأهلية ، حيث بدأ الفريقان الصراع على السلطة ، وأخذ العداء
يكون طابعا رئيسيا بين الفريقين^(١) . وكانت الامبراطورية البيزنطية تعاني
من أمراض الشيخوخة ، وكان أخطر هذه الأمراض هو الحرب الأهلية ، والصراع
حول العرش بين زعماء غير أكفاء لمواجهة الخطر الحقيقى الذى يواجهه
الامبراطورية ، وكان وقد هذه الحرب شعبا كان يفقد الثقة فى نفسه ،
وفى زعمائه سنة بعد أخرى . (٢)

وزاد الموقف سوءا بالنسبة للامبراطورية البيزنطية أن وفاة الامبراطور
أندرونيق الثالث سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م أعقبها حرب أهلية أثناء وصاية
آنا (Anna) أميرة سافوى التى أشرفت على الامبراطور حنا الخامس
باليولوفوس الذى لم يكن قد بلغ سن الرشد ، فقام حنا كيتاكوزين وأعلن
نفسه امبراطورا سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ، ولست سنوات أصبح العالم
البيزنطى مقسما بين جماعتين ، الأولى ، وهى الجماعة الارستقراطية
وتناصر أسرة كيتاكوزين ، والثانية ، جماعة الحامة وتناصر أسرة باليولوفوس ،

(1) Vryonis: op. cit., pp. 163-165; Diehl: History of the
Byzantine Empire, p. 564.

(٢) محمود محمد زيادة ، دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ص ٥٩٦ .

وفي خلال هذه الحرب الأهلية الداخلية ، لم يتردد المتنازعون على العرش عن الاستعانة بالعثمانيين ، مما أعطى الأتراك العثمانيين سلاحا خطيرا في تقديمهم الى الدولة البيزنطية والتدخل في شئونها الداخلية . ومن جهة أخرى مكنت هذه الحرب الأهلية البيزنطية لستيفن دوشان (٧٣٤ هـ — ٧٥٦ هـ / ١٣٣٣ م — ١٣٥٥ م) ملك الصرب من انتهاز الفرصة ، والاستيلاء على ألبانيا وأبيروس وتساليا ، فضلا عن اتخاذه لقب امبراطور من جهة أخرى . (١)

وفي أثناء عهد حنا كيتاكوزين (٧٤٨ هـ — ٧٥٦ هـ / ١٣٤٧ م — ١٣٥٥ م) عانت الامبراطورية البيزنطية الكثير من مؤامرات حنا باليولوغوس الخامس ، وما أدت اليه هذه المؤامرات من اضطرابات داخلية ، فقد زاد من عوامل هذه الفوضى والاضطرابات الداخلية في الامبراطورية البيزنطية اجتدام التنافس بين جنوه والبندقية في أنحاء الامبراطورية داخل أراضيها الى أن انتهى الأمر بهزيمة البندقية سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م . (٢) هذا مما أدى في النهاية الى طرد حنا كيتاكوزين من الحكم وتولى الامبراطورية أخيرا الامبراطور الشرعى حنا باليولوغوس ، ولكن كانت الامبراطورية قد انهارت من جراء هذه الحروب الداخلية الدامية بين أفراد الحزبين (كيتاكوزين — وباليولوغوس) (٣)

(١) Miller: The Balkans, pp. 274-278.

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 666.

(٣) أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، نورمان بيمبزر ،
الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٤٨ — ٣٤٩ ، سعيد عبدالفتاح عاشور ،
أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٦٥١ .

ونتيجة لذلك كانت الدولة البيزنطية تعاني من الارتباك المالي ففى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . فبالرغم من النظم المالية والضرائب التى فرضتها الدولة على رعاياها ، فان خزانة الدولة أصبحت تعاني من نقص الدخل ، ويرجع ذلك كما ذكرنا الى ما سببته الحروب الأهلية الداخلية من خراب . كما أن الرسوم الجمركية قد تضائلت بسبب استئثار البنادقة والجنسوية بقسط كبير من التجارة الخارجية واحتكارهم لها وحصولهم على امتيازات كبيرة فى موانئ ومدن الإمبراطورية ، ولذلك اضطرت الحكومة البيزنطية لخفض قيمة النقود الذهبى البيزنطى ، وعمد الأباطرة البيزنطيون للاستدانة ، حتى أنهم رهنوا جواهر التاج . ونضبت الموارد ، وأصبحت خزانة الدولة خاوية وانتشرت المجاعة بين قطاع كبير من المواطنين البيزنطيين . (١)

ومع مرور الأيام لم يتحسن الحال ، بل زادت الأزمة تعقيدا ، واضطرب الإمبراطور لفرض ضرائب جديدة على المواطنين القادرين وغير القادرين . لكن السنوات المجاف التى استمرت فيها الحرب الأهلية ، أودت هى الأخرى بالكثير من مصادر الدخل الخاصة ، مما جعل طائفة الملاك أيضا يتقاعدون عن الاسهام بأنصبة مالية لدعم النظام المالى المتدهور ، وزادت هذه الضرائب عدد المتدمرين فى الإمبراطورية البيزنطية أيضا . (٢)

(١) عمر كمال توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٢١ ، نبیه عاقل ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٣٣٦ .

(٢) الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٥٦٦ ، Ostrogorsky: op. cit., p. 304.

وقد صاحب التدهور البالى تدهور آخر ظهر أثره فى قوة الجيش البيزنطى وقدرته ، وأصبح من المتعذر فرض الطاعة والنظام على عناصره . ومشكل عام أضى الجيش البيزنطى أضعف من أن يستطيع القيام بمسئولية الدفاع عن الإمبراطورية البيزنطية .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد استخدمت فئات من الجنود المرتزقة لدعم موقفها المسكرى فكانت بذلك كالمستجير من الرضاء بالنار ، حيث كان من بين هذه الفئات ، العصبة القطلانية الكبرى ، والتي بلغ عدد أفرادها حوالى ثمانية آلاف جندى مرتزق . وتكونت هذه العصبة من جماعة النبلاء القطلانيين الذين أخصنى عليهم الدهر والفقر ، حيث أبحروا من مسينيا فى جزيرة صقلية الى القسطنطينية فى سنة ٧٠٠ هـ / سنة ١٣٠٠ م ، وكانوا على نصيب موفور من الشراسة والميل الى التخريب والخروج على النظام وكانوا معولا هداما أكثر منهم أداة تدعيم . (١)

وتزعم هذه العصبة فى العاصمة البيزنطية قرصان ألمانى اسمه روجردى فلور ، (Roger de flor) وقد منحت الدولة البيزنطية روجر هذا لقب (دوق أعظم) واستغل روجر وجماعته هذا التكريم فعاثوا فى القسطنطينية فسادا ، وارتكبوا المذابح الجماعية ونشروا الرعب بين الأهالى البيزنطيين ،

(١) فيهر ، تاريخ أوروبا المصور الوسطى ، ق ٢ ، ص ٤٤٢ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٥٦٧ ، عمر توفيق ، نفس المرجع ، ص ٢٢١ ، نبيه عاقل ، نفس المرجع ، ص ٣٣٩ ، عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٧٢ .

واحتلوا شبه جزيرة غاليلوى ، وأدركوا أن لا حرج عليهم فى دولة برج بيها الضعف أن ينشروا فيها الفساد ، وأن يتطاولوا على حكومتها وإمبراطورها أعظم تطاول . (١)

ومن ناحية أخرى كانت الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية فى القسطنطينية قد فقدت سيطرتها على العالم المسيحى الشرقى فى البلقان . ولم تستلج هذه الكنيسة أن تحافظ على تماسك العناصر المسيحية الخاضعة لها ، إذ كان الفساد قد تطرق اليها ، وانعكس هذا الفساد على سلوك رجالها . وهددت الكنيسة جهودها فى الإصلاح فى مناقشات دينية عقيمة ، زادت من الفرقة والنفور بين رعاياها . فكان من نتيجة ذلك ضعف الوازع الدينى فى نفوس الشعوب البلقانية ، وعدم القيام بتعبئة روحية بين الجماهير المسيحية ، مما أدى الى الانهيار العسكرى الكامل عند وقوع الاشتباك مع العثمانيين المسلمين . وكان الخلاف الدينى والمذهبى بين المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين ، وبين المسيحيين الكاثوليك الغربيين وهم رعايا كنيسة روما ، هذا الخلاف الدينى والمذهبى الذى استحكمت حلقاته — ترك آثارا عميقة فى نفوس الفريقين وعلى الأخص المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس ، كان من أكبر العوامل التى ساعدت العثمانيين فى زحفهم على البلقان وفتحها .

(١) فيشر ، نفس المرجع ، ص ٤٤٣ ، نبيه عاقل ، نفس المرجع ، ص ٣٣٩ ، عبد القادر اليوسف ، نفس المرجع ، ص ١٧٢ / ١٧٣ .

ومهذا يتبين لنا أن الحروب الأهلية كانت من أهم العوامل التي ساعدت الأتراك على فتح الأناضول بسرعة وسهولة ، وذلك لأن كلا الفريقين ، الأرستقراطية المدنية ، والأرستقراطية العسكرية قد استعان بالأتراك لمعاونتهم العسكرية خلال الحروب الأهلية والتي وجد الأتراك العثمانيون فيها طريقا لهم الى بحرايجهم ، وإلى كثير من المدن الحصينة وتمكنوا من الاستيلاء عليها . (١)

وسبب ذلك أن الدعامتين الأساسيتين اللتين قامت عليهما السلطة فى الدولة البيزنطية لم تكونا سوى الثراء المادى والنظام الإدارى ، كما عانى النظام الإدارى أيضا داخل الدولة من فساد استشرى فى كل القطاعات فانخفضت قيمة العملة ، وجفت ينابيع الموارد المالية ، وتقلصت سلطة الإداريين فى الدولة البيزنطية حتى أصبحوا مجرد أسماء لا تتمتع بأى صلاحيات إدارية على الإطلاق . ومن الخريب أن هؤلاء الإداريين الذين عملوا تحت أباطرة بيزنطة كانوا حجر الزاوية فى النظام الإدارى فى الدولة البيزنطية ، وتحولت المكاتب والمصالح والإدارات الى أسماء فارغة من أى معنى وضاعت وسط زحام الفساد الإدارى كل الصلاحيات التى كان يتمتع بها هؤلاء القادة الإداريون . (٢)

(1) Vryonis: Byzantium. p. 174.

(2) Ostrogorsky: History of the Byzantine state, p. 532.

ومجمل القول أن تردى الأوضاع الاقتصادية والانحلال والتفكك الذى ساد أجهزة ودوائر الحكومة أودى بالوجود الذاتى للأباطورية البيزنطية ، وهز جذورها من الأعماق واستمر هذا الانهيار والتفكك حتى كانت نهاية الدولة البيزنطية . ولم يكن تاريخ الدولة البيزنطية فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) سوى تأريخ لبداية النهاية للدولة البيزنطية .

أما عن العوامل الخارجية لاضمحلال الدولة البيزنطية عند منتصف القرن الثامن الهجرى ، فمنذ أن وصلت الفتوحات الإسلامية الى حدود الدولة البيزنطية والعلاقات بين المسلمين وبين الدولة البيزنطية فى شد وجذب بين غارات وعداوات مستمرة وترصد كل من الدولتين للأخرى . وأبرز ما دونته التاريخ من العلاقات السيئة بين المسلمين والدولة البيزنطية ، يرى واضحا فى العصر العباسى . فقد كانت الحدود بين العباسيين ، والبيزنطيين ميدانا لنشاط حربى كان محدودا ، ولكنه يكاد يكون متصلا . فلم يكن كشاط الأمويين ، ويرجع ذلك الى أن هدف الأمويين كان التوسع ، بل وفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية والقضاء عليها لئتم بذلك احتلال وفتح بلاد الروم ، كما تم من قبل فتح بلاد فارس . لكن العباسيين لم يسيروا على هذا النمط ، وإنما جعلوا نشاطهم الحربى عبارة عن غارات ، الغرض منها اظهار القوة وارهاب العدو ، والرد على ما قد يقوم به من نشاط مماثل ، وقد اتخذت هذه الاغارات شكلا منتظما وكانت تسمى الصوائف والشواتى . (١)

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ١٣٧ ، سنة ١٣٩ ، ولتفصيل هذه النقطة ارجع الى فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ، حيث احتوى هذا المرجع على معلومات هامة قيمة .

وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أخذ الموقف بين المسلمين والمسيحيين البيزنطيين يتبدل نتيجة لظهور قوة الأتراك السلاجقة ، والذين يعتبر ظهورهم فاتحة عصر جديد لا في التاريخ الاسلامي فحسب بل في تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام . (١)

والسلاجقة فرع من الأتراك الغز ، ظلوا على بساطتهم الأولى ، دون أن تفسدهم حياة الترف والمدنية . حتى كان اعتناقهم الاسلام في وقت متأخر وأعطى حماسهم للاسلام قوة جديدة للعالم الاسلامي . في وقت تفكك فيسه العالم الاسلامي واشتدت فيه الخلافات السياسية والمذهبية بين الدول التي انقسم اليها . (٢)

وقد تمكن السلاجقة الأتراك قبل منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) من فتح خراسان وايران . ودخل زعيمهم طغرل بك بغداد عام ١٠٥٥ م فرحب به الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، واستعان به ضد أعدائه . وقد أسدى السلاجقة للدولة العباسية خدمات جمة جليلة ، استطاع طغرل بك من خلالها إخضاع الموصل وديار بكر وغيرها من الأطراف الغربية للدولة . (٣)

(1) Cam. Med. Hist, Vol. 4, p. 299.

(2) Cam. Med. Hist, Vol. 5, pp. 259-260.

(٣) كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٩ .

وقد حفظ لنا التاريخ ثلاثة من أعظم ملوك السلاجقة المسلمين المجاهدين
في العصر السلجوقي الأول . هم طغرل بك (ت ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م) ،
والب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) ، وملكشاه (٤٦٥ -
٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) .

وفي خلال الخمسين سنة التي حكم فيها هؤلاء الثلاثة الصالحين ، ساهم
أمر دولتهم وزير مشهور هو نظام الملك الذي كان عهده أزهى عصور التاريخ
السلجوقي ، وأكثرها ازدهاراً . (١)

ومعد وفاة طغرل بك دخلت سياسة السلاجقة تجاه الدولة البيزنطية
دورا جديدا بعد أن خلف طغرل خليفته الب أرسلان (٢) (٤٥٥ هـ - ٤٦٥ هـ
/ ١٠٦٣ م - ١٠٧٢ م) الذي حكم فترة قصيرة ولكنها مليئة بالحوادث الهامة .
وذلك أن السلاجقة الأتراك كانوا سنيين متحمسين ، فتعصبوا لنصرة الخليفة
العباسي السني ضد الفاطميين في مصر والشام . (٣)

(1) Diehl, Marçais, Le Mond Oriental de 395a1081, p.389.

(٢) الب أرسلان : لقب تركي معناه الأسد الشجاع ، وقد اتخذ الب أرسلان
اسم محمد عند اعتناقه الاسلام ، ثم أضفى عليه الخليفة القائم لقب

(عز الدين) — أنظر : (3) Gibb: The Damascus chronicle of the Crusader,
pp. 19 - 20.

(١) ثم زاد ألب أرسلان على ذلك إخضاع الثورات التي قامت في بلاد فارس ، على أن شهرة ألب أرسلان في التاريخ نبعت بوجه خاص من موقفه من الدولة البيزنطية حيث أصبح السلاجقة الأتراك عند منتصف القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى) عاملاً أساسياً موجهاً للتاريخ البيزنطى نتيجة تهديد هم لحدود الدولة فى آسيا الصغرى والقوقاز . (٢) وذلك بحكم تطلّصهم ، وطموحهم الى توسيع دائرة أملاكهم على حساب خصومهم فى الدين . وقام ألب أرسلان بالاغارة على أطراف الدولة البيزنطية سنة ٤٥٧ هـ / سنة ١٠٦٥ م حيث فتح آنى ، ثم قروسى وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية ، والمركزان الأساسيان لقوة بيزنطة ونفوذها فى الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى . (٣) ومنذ ذلك الوقت أصبح الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة الأتراك الى داخل الأناضول ، بعد أن استولى ألب أرسلان على قلب أرمينية ، فاستمروا منذ ذلك الوقت بجتاحون القرى والضياع ، متجنبين بقدر المستطاع المراكز القوية المحصنة . وفى سنة ٤٥٨ هـ / سنة ١٠٦٦ م احتلوا دروب جبال أمانوس ، وفى الربيع التالى فتحوا قيصرية حاضرة كبادوكيا

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٨٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦ هـ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦ هـ .

Vasiliev; op. cit., Vol. I, p. 355; Ostrogorsky: op. cit., p. 304.

(١) واعتدوا على كنيسة القديس باسل . مما أثار الحماس الديني عند المسيحيين ، وهب الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع (Romanous IV) (٤٦٠ - ٤٦٤ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٧١ م) للدفاع عن بلاده ضد هذا الخطر الاسلامي الداهم .

وبدا رومانوس الرابع باصلاح الأوضاع الداخلية في الدولة ، ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطي الذي غدت الفرق الأساسية فيه تتألف من جند مرتزقة من النورمان الايطاليين ، والتركمان الآسيويين ، فضلا عن الفرنجة الغربيين . واستطاع الامبراطور البيزنطي أن يحقق بعض الانتصارات السريعة والسهلة في أول الأمر . هذا وإن كانت خفة الأتراك السلاجقة وسرعة حركاتهم لم تمكنه من تنفيذ برنامجه وفق ماكان يشتهي . (٢)

(١) القديس باسل : (٣٢٩ - ٣٧٩ م) درس نظام الأديرة الانطونية والباخومية ولم تعجبه ، فأسس مؤسسة ديرية في قيصرية الجديدة في آسيا الصغرى حوالي (سنة ٣٦٠ م) وسرعان ما أصبحت التنظيمات التي وضعها القديس باسل لمؤسساته الديرية بمثابة دستور للأديرة الباسلية التي انتشرت آنذاك في فلسطين واليونان والشام حتى صارت هذه الأديرة تتزعم الحياة الديرية في الامبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى .

Workman: The Evolution of the Monastic Ideal, أنظر : pp. 111-113.

(٢) ابن الأثير ، حوادث سنة ٤٦٢ هـ ، رنسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،

ص ٩٥. Ostrogorsky: op. cit., p. 304; Vasiliev: op. cit., Vol. I, p. 355.

وخرج رومانوس الرابع فى ربيع سنة ٤٦٤ هـ / سنة ١٠٧١ م على رأس جيش كبير ليسترد أرمينية ، وقد سلك الامبراطور الطريق البيزنطى القديم الذى اجتازه الأباطرة فى عروشهم وهو طريق سيواس قيصرية للوصول الى مرعش على الحدود بين الشام وقيليقية . وقد جعل الامبراطور نصب عينيه أن يستولى على حصون أرمينية وأن يشحنها بالأساكر ، قبل اقدام الترك من جهة الجنوب ، وكان الب أرسلان فى الشام فى موضع قريب من حلب ، وحينما سمع بزحف البيزنطيين أدرك أنه لابد أن يتصدى للقتال مع الصليبيين . (١)

وفى سنة ٤٦٤ هـ / ١٩ من أغسطس سنة ١٠٧١ م التقى الب أرسلان بخصمه رومانوس الرابع فى جيش بلغ تعداده خمسة عشر ألف محارب جنوبى ملاذكرد (مانزكرت) (٢) أو على وجه التحديد بين مانزكرت وخلاط . ودارت المعركة ، وكان القتال عنيفا وطويلا ، لم تنجح فيه خيالة البيزنطيين المدربة والثقيلة الحركة ، فتغلبت عليها خيالة السلاجقة الأتراك الخفيفة المبروفة بسرعة حركاتها حتى حلت الهزيمة بالبيزنطيين آخر الأمر . وتمزق الجيش البيزنطى شرمزق فى حين وقع الامبراطور البيزنطى نفسه أسيرا بعد أن جرح فى المعركة . (٣)

-
- (١) رنسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٩٨ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، حوادث سنة ٤٦٣ ، رنسمان ، نفس المرجع ص ٩٨ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٤ — ٦٦ ، ابن الحديد ، زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ج ٢ ص ٢٢ — ٢٨ ، رنسمان ، نفس المرجع ص ٩٨ .

وتعتبر هزيمة مانزكرت الساحقة للبيزنطيين المسيحيين نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الدولة البيزنطية ، حيث كانت دليلا واضحا على نهائية دور هذه الدولة فى حماية المسيحية من خطر وضغط الاسلام ، وترتب عليها أيضا ضياع الأجزاء الشرقية من الامبراطورية البيزنطية ، كذلك عدم استطاعة الامبراطورية البيزنطية الثبات بعد ذلك فى وجه الفتوحات التركية العثمانية فى آسيا الصغرى .

ومصفة عامة يمكن أن يقال أن هزيمة البيزنطيين فى موقعة مانزكرت قد قررت مصير الامبراطورية البيزنطية . فقد فقد البيزنطيون على أرض معركة مانزكرت ما اتخذوه من لقب حماة العالم المسيحى ، وفى حراسة الباب الشرقى لأوربا من غزو المسلمين . وكان ذلك نتيجة حتمية ومبررا قويا للغرب فى إرسالهم الحملات الصليبية ، والتي أدت بدورها فى النهاية الى انهيار الدولة البيزنطية . ولم تكن هزيمة مانزكرت سوى نتيجة لسوء الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية التى سادت حياة الامبراطورية البيزنطية فى القرن الحادى عشر الميلادى وما تلاه . (١)

ولم تقلل وفاة ألب أرسلان سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م من خطر السلاجقة الأتراك على الدولة البيزنطية ، إذ خلفه أخوه ملكشاه الذى استمر السلاجقة

(1) Peter: Economic Factors in the Decline of Byzantine Empire, pp. 415-416.

فى عهدہ يفتحون الكثير من بلاد آسيا الصغرى وينزلون بالمدن البيزنطية
أقصى ألوان المهزمية . (١) ويبدو أن السلاجقة استفلوا فرصة الفوضى
التي غرقت فيها الامبراطورية البيزنطية فى الفترة الواقعة بين موقعة مانزكمرت
سنة ٤٦٤ هـ / سنة ١٠٧١ م واعتلاء الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية
سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م وأخذوا يتوسعون ويفتحون فى آسيا الصغرى دون
مصادفة رقيب يقاومهم ، هذا الى جانب أن البيزنطيين أنفسهم استعانوا
بهم فى خلافاتهم الداخلية .

وأخيرا لم يجد الامبراطور ميخائيل السابع (٤٦٤ هـ — ٤٧٢ هـ / ١٠٧١
— ١٠٧٩ م) وسيلة لوقف توسع السلاجقة الأتراك فى آسيا الصغرى سوى
عمل اتفاقية سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م مع سليمان قائد جيش ملكشاه ، سلم
فيها الامبراطور البيزنطى بحق السلاجقة فى حكم الأراضى التى فتحوها
فعلا فى آسيا الصغرى . (٢) وإلى سليمان هذا يرجع الفضل فى وضع أساس
ما عرف بعد ذلك باسم سلطنة قونية ، نسبة الى هذه المدينة العظيمة
التي اتخذها الأتراك السلاجقة مركزا لسلطانهم فى آسيا الصغرى . ومن هذا
المركز الرئيسى فى قلب آسيا الصغرى أخذت قوة الأتراك تنمو وتزدهر وتمتد
حتى بلغت شواطئ البحر الأسود شمالا والبحر المتوسط جنوبا ، هذا عدا

(1) Cam. Med. Hist, Vol, 4, pp. 307-308.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 172; Vasiliev: op. cit., Vol. I, p. 471.

توسع الأتراك السلاجقة غربا دون أن تقوى الإمبراطورية البيزنطية على وقف تيارهم . (١)

وإذا كان الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الأول كومنين (٤٧٤ - ٥١٢ هـ / ١٠٨١ - ١١١٨ م) قد استطاع أن يسير بسفينة الإمبراطورية وسط هذه الأمواج المتلاطمة الى بر الأمان فإنه لم يستطع الوصول الى هذه النتيجة دون ثمن مرتفع ، ذلك أن الصليبيين الأوربيين الغربيين الذين وفدوا الى الشرق نتيجة لتوسلات كومنين وأسلافه من الأباطرة ، استقروا بالأراضي الشامية ليثيروا خطرا مستمرا في وجه الإمبراطور البيزنطي نتيجة لتفوقهم الحربي وأطماعهم السياسية من جهة ، وللعداء المذهبي بينهم وبين البيزنطيين الأرثوذكس من جهة أخرى . (٢)

وقد ترتب على ذلك وجود عدة عوامل لدى الصليبيين الغربيين ، منها التفوق العسكري ، والعتاد الحربي ، ثم الأطماع السياسية ، ولعل أقوى هذه العوامل في إثارة العداء بين الصليبيين الغربيين والدولة البيزنطية هو الخلاف المذهبي ، والصراع الديني مما أدى الى سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين الغربيين في الحملة الصليبية الرابعة سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م

(١) سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٣٤ ، Diehl, Marçais: op. cit., p. 562.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٣٤ ، و ص ٤٨٨ .

ليفعلوا فيها الشيء الكثير من ضروب السلب والنهب والتخريب حتى سنة ١٢٦١ م . (١) وكان استيلاء الصليبيين على القسطنطينية (١٢٠٤ هـ — ١٢٦١ م) وصمة عار في تاريخ الحروب الصليبية تجاه الامبراطورية البيزنطية . ولم يزعج هذا التحول في طريق العملة الصليبية الرابعة واتجاهها نحو القسطنطينية البابا أنوسنت الثالث لأنه رأى فيه فرصة لطى الكيسنة الأرثوذكسية تحت لواء البابوية . (٢)

وكان استيلاء الغربيين على القسطنطينية واسقاطهم الامبراطورية البيزنطية ضربة لم تستطع الامبراطورية البيزنطية أن ترفع رأسها من بعدها ، وكذلك كان لمسلك الرومان المشين تجاه أهالي الامبراطورية نتائج أدت الى زيادة النفور بين البيزنطيين من الغرب الأوربي وأهله وكنيسته . (٣)

وعندما تم احياء الامبراطورية البيزنطية مرة أخرى على يد ميخائيل باليولوفوس الثامن (٦٥٨ — ٦٨١ هـ / ١٢٥٩ — ١٢٨٢ م) الذي استغل تخريب الأسطول البندقي عن القسطنطينية وهاجم المدينة واستولى عليها (٦٦٠ هـ — ١٢٦١ م) وهلمت البندقية لذلك ولاسيما عندما منح الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن منافستها جنوة جميع الامتيازات التي تمتع بها البنادقة

(1) Painter: A history of the Middle Ages, P.216.

(٢) جميل بينهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، ص ٢٣٧
Tout: op. cit, p. 347.

(3) Lodge: The Close of the Middle Ages, p. 494.

في القسطنطينية ، ولذلك قامت البندقية تدعو لحملة صليبية رومانية غربية ضد الامبراطور ميخائيل الثامن ، وساندها البابا أوربان الرابع في هذه الدعوة ، ولكن شيئاً من هذا لم يتحقق وفشلت من جذورها . (١)

وكان من الواضح أن ما يسميه المؤرخون بأحياء الامبراطورية البيزنطية (٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) لا يعدو أن يكون في حقيقة الأمر استرداد المدينة القسطنطينية على أيدي أحد حكام نيقية البيزنطيين . (٢) ذلك لأن الامبراطورية البيزنطية في عهد ميخائيل الثامن وخلفائه كانت محدودة المساحة ، لا تتعدى القسطنطينية نفسها وعدة مناطق قريبة منها . فمن جهتي الشمال والغرب كانت تحدها مملكة البلغار والصرب ، في حين كانت شبه جزيرة المورة مقسمة الى دويلات صغيرة بين بعض الأمراء اللاتين والبنادقة الذين سيطروا أيضاً على جزر كورفو ، وكريت ، وغيرها من جزر بحر إيجة . (٣) وإذا كان الأباطرة البيزنطيون من أسرة باليولوغوس قد نجحوا في الاحتفاظ بالجزء الأكبر من الساحل الشرقي لآسيا الصغرى ، مع بعض المدن الهامة على شاطئ البحر الأسود ، فان بقية شبه جزيرة المورة

(1) Ostrogorsky: op. cit., pp. 399-400.

(2) Vasiliev: op. cit., Tome 2, p. 270.

(3) Gibbons: The foundation of the Ottoman Empier, p. 13.;
Ostrogorsky: op. cit., p. 425.

ظل بأيدي سلاطين قونية الأتراك • في الوقت الذي كان فيه البيزنطيون
أضعف من أن يقوموا بمحاولة أخرى جديدة لاسترداد هذه الأجزاء المفقودة •

وحدث أن الإمبراطورية البيزنطية بعد الإمبراطور ميخائيل باليولفوس
قد منيت بأباطرة غير أكفاء كان همهم الانصراف إلى اللهو والمشاغبات
المذهبية والتنازع على العرش في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية
المسلمة تتحفز للشوب على الجانب الأوربي من أملاك الدولة البيزنطية •

وكان هؤلاء الأباطرة قدوة سيئة لقومهم • ولم يعنوا بالجند ولا بالجيش
الذي أسس في جملته من المرتزقة الغرباء الذين كان يستوى لديهم انتصار
الإمبراطورية أو هزيمتها • ولكن التنازع الذي حدث أثر موت ستيفن رومان
سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م ملك الصرب في دولته قضى عليها بالانحلال
فانفصلت عنها بلغاريا ، والبوسنة وألبانيا ومقدونيا • أما روسيا الأرثوذكسية
رأس العائلة السلافية فكانت هي أيضا تنزع في ذلك الوقت تحت أقدام المنغول
(٢)
فلم تحفل بها السلطنة العثمانية •

(١) القدسي الحنبلي : قلائد الحقيان في فضائل آل عثمان ، ورقة ١٤ ،
البكري : المنح الرحمانية ، ورقة ٣ ، العصاصي : سمط النجوم
العوالي ، ج ٤ ، ص ٦٠ •

(2) Greasy: History of the Ottoman Turkes, p. 27.

أما الدول الكاثوليكية وهي بولونيا ، والمجر ، وألمانيا ، وفرنسا ،
وانجلترا ، وأسبانيا فكانت حالتها في منتصف القرن الثامن الهجرى الرابع
عشر الميلادى كالآتى :

كانت بولونيا من الدول القوية حينما نشأت الدولة العثمانية ، ولم تتوقع
أن دولة العثمانيين ستنتهز فرصة الفوضى التى حدثت فى بولونيا سنة ٧٠٠ هـ
/ سنة ١٣٠٠ م بسبب التنازع على العرش وتقوى نفسها على حساب هذا
التنازع فى داخل بولونيا ثم توسع أملاكها ابان الخصام الشديد الذى نشب
بين ملوك بولونيا وأشراف مملكتهم .

وعندما سمعت الدول الكبرى الأوربية بآلام اخوانهم مسيحيى الشرق
لم يحركوا ساكنا ولم تحاول هذه الدول أن تصنع شيئا تجاه هؤلاء يقوى
من جانبهم ويضعف الأتراك العثمانيين ، وذلك لأن الروح الصليبية كانت قد
ضعفت ولم يعد هناك فائدة ترجى لتلبية النداء ضد العثمانيين ، وأيضا
لأن الأحوال الداخلية فى هذه الدول فى خلال القرن الثامن الهجرى/الرابع
عشر الميلادى ، كانت لا تشجع على ذلك .

وكانت الآمال الكبرى معقودة على دفع خطر العثمانيين عن أوروبا — على
فرنسا وانجلترا . وأراد فيليب السادس ملك فرنسا أن يحيى عهد الحروب
الصليبية ، لكن حال دون تحقيق هذه الرغبة حرب المائة عام التى اشتبكت
فيها فرنسا مع انجلترا فى حرب ضروس من (٧٣٨ — ٨٥٧ هـ /

(١)
١٣٣٧ م — ١٤٥٣ م .

أما في أسبانيا فلقد كان الأمراء المسيحيون لازالوا معنولين في الصراع مع المسلمين ، وكانت الصعوبة في وحدة القوى الخيرية في أى مشروع ضد العدو المشترك لديانتهم لا يمكن التغلب عليها لأن البابوية التي قسمت بين كل العالم الغربي المسيحي كانت منقسمة على نفسها الى بابويتين واحدة في مدينة أفينون (Avignon) الفرنسية ، والأخرى كانت في مدينة روما الإيطالية ، وهي الفترة الواقعة بين سنتي (٧٠٥ هـ — ٧٢٩ هـ / ١٣٠٥ م — ١٣٧٧ م) والتي يطلق عليها في تاريخ البابوية اسم " الأسر البابلي " (٢) وكان كلاهما يدعى تسمية الآخر له في الوقت الذي

(١) حرب المائة عام : كانت بين إنجلترا وفرنسا وكان من أسبابها النزاع بين إنجلترا وفرنسا حول أملاك إنجلترا في القارة والتنافس الاقتصادي بين الدولتين وتعارض مصالحهما السياسية في القارة (وكانت النتيجة النهائية لهذه الحروب هو طرد إنجلترا نهائيا من قلب القارة .

أنظر : Thompson: The Middle Ages, Vol. 2., p. 891; Cam. : Med. Hist. Vol.7., p. 340.

(٢) اهتز مركز البابوية اهتزازا عنيفا في مطلع القرن الرابع عشر وحدث أن أختير في سنة ١٣٠٥ م أحد الكرادلة الفرنسيين لمنصب البابوية باسم البابا كلمنت الخامس (Clement V) (١٣٠٥-١٣١٤ م) وقد أثر هذا البابا أن تتم مراسيم توليه منصبه الجديد في فرنسا في مدينة أفينون على نهر الرون على الحدود الفرنسية واتخذها مقرا جديدا للبابوية ، وكان المفروض أن تكون في روما ، واستطالت هذه الفترة ٧٢ سنة أطلق عليها الأسر البابلي (١٣٠٥-١٣٧٧ م) حيث كانت البابوية شبه أسيرة بحكم خضوعها للملكية الفرنسية . (أنظر : الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ص ١٤٠)

Stephenson: Mediaeval History, p. 503.

(١)

عجز كلاهما عن القيام بأى عمل ضد العثمانيين المسلمين .

أما جنوة والبندقية ، فنشبت بينهما حرب أخرى ضروس داخل المياها البيزنطية . وكان من أسباب هذه الحروب محاولة جنوة فرض سيطرتها على الطريق التجارى فى البحر الأسود ، بل ذهبت جنوة الى أكثر من ذلك فحاولت سد الطريق أمام السفن الأجنبية ، وهددت فى كثير من الأحيان الى مصادرة سفن البندقية التجارية فى كافا (Cafa) ^{تحتفظها لتلك السيطرة} (٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) . واجتدم التنافس بينهما فى أنحاء الامبراطورية حتى انتهت بهزيمة البندقية (٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م) . (٢)

وكان اجتياح الوباء الخطير لأوربا (٧٤٩ هـ — ٧٥٠ هـ / ١٣٤٨ م — ١٣٤٩ م) والذي عرف بالموت الأسود (Black Death) أو الطاعون . والمعروف أن هذا الوباء زحف من آسيا على امتداد الطرق التجارية المؤدية الى البحر الأسود ، ومن ثم تطرق الى شرق أوربا فخرّبها ، فضلا عن بلاد الشرق الأدنى بما فى ذلك بلدان العالم الاسلامى (٣) وفقدت

(1) Creasy: op. cit., p. 38.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 4., p. 666; Ostrogorsky: op. cit., p. 520.

(٣) المقرئى ، السلوك ، حوادث سنة ٧٤٩ هـ ، Stephenson: op. cit., p. 520.

أوروبا بسبب هذا الهماء أعداداً ضخمة من سكانها مما أثر في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية تأثيراً خطيراً بعد أن قلت الأيدي العاملة ، وارتفعت الأسعار ، وتوقفت التجارة واختل كثير من المقاييس الاقتصادية ، والاجتماعية التي عرفت في أوروبا في العصور الوسطى . (١)

وفي أثناء هذه الكوارث التي حلت بالدولة البيزنطية ازدادت قوة الدولة العثمانية ، وما تجدر ملاحظته أنه كلما ازداد ضعف الدولة البيزنطية يقابله من الناحية الأخرى ازدياد قوة الدولة العثمانية ولذلك استدعت الدولة العثمانية انتهاء هذه الفوضى للتوسع في الفتوحات الإسلامية على حساب الدولة البيزنطية . وقد ساعدها على النجاح في هذه الفتوحات الانشقاق الكنسي الذي أصاب البابوية . لأن البابوية فقدت هيبتها منذ أن قضى عليها بالانتقال إلى أفينون قسراً (٧٠٨ هـ / سنة ١٣٠٨ م) . ولذلك لم تستطع دول أوروبا تكوين جبهة صليبية لمقاومة العثمانيين الذين نجحوا في الاستيلاء على كثير من المدن البيزنطية ، مصفة خاصة في عهد السلطان أورخان الابن الأكبر للسلطان عثمان ، الذي انصرف إلى العمليات الحربية وتنظيم شئون الدولة الداخلية ، وذلك استطاع أن يجمع بين البناء الداخلي والجهاد العثماني الخارجي واستطاع العثمانيون وعلى رأسهم السلطان أورخان

(1) Cam. Med. Hist., Vol. 7., p 5, 463-733; Orton: Outines of Medieval History, p. 379.

فتح مدينة أزميد " نيقوميديا " (١) وذلك في السنة الأولى من حكمه (٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) . وكانت هذه المدينة آخر معقل للدولة البيزنطية في الركن الشمالي من شبه جزيرة آسيا الصغرى ، ورضى السلطان أورخان في فتوحاته وجهاده الإسلامي ضد البيزنطيين المسيحيين حتى استطاع فتح (٢) مدينة " نيقية " ، وكانت من أمهات المدن في الإمبراطورية البيزنطية .

ويستقط هذه المدينة وا لمنطقة الخربية من الأناضول استطاع العثمانيون السيطرة على بحر مرمرة ، ومن ثم انفسح الطريق أمامهم للوصول الى البوسفور

وقد أثار ذلك شيئاً غير قليل من الفزع والقلق في الدولة البيزنطية خاصة والدول الأوروبية عامة ، فبدأت البابوية تشعر بالخوف من تقدم العثمانيين

(١) نيقوميديا : هي مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى أصل اسمها (نيكوميدس) كانت عاصمة لمملكة (بيثينيا) واقعة على بحر مرمرة ويعدخل ميناءها أكبر السفن ومياه معدنية (أنظر محمد فريد ، الدولة العلية ص ٤١) .

(٢) نيقية : مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى ، واقعة شرق مدينة بورصة بنحو ٨٠ كم ، وهي مدينة أسنك الحالية (أنظر محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٤١) .

(٣) الحصاى ، سمط النجوم الحوالى ، ج ٤ ، ص ٦٠ ، سردينك ، حقائق الأخبار ، ص ٤٨٩ ، فيشر ، المرجع السابق ، ص ٤٤٧ .

المسلمين ، وخشيت أن يعبر العثمانيون الى أوروبا فيعظم خطرهم بعد ذلك على ايطاليا . كما أدركت المدن التجارية الايطالية — وفي مقدمتهم البندقية — الخطر الكامن في هذه الدولة الاسلامية الجديدة اذا ما ترعرت ونمت ، فانها لن تلبث أن تتازعها سلطاتها ومكانتها في الشرق ، وتستولى على أملاكها ، ومستعمراتها فيه . وقامت البندقية بتأليب الدول النصرانية على العثمانيين المسلمين قبل أن يستفحل أمرهم ويعظم خطرهم . (١)

ونجحت البندقية بالفعل في دفع الصليبيين الى عقد حلف صليبي اشترك فيه البابا وملك فرنسا ، والبندقية ، وفرسان الاستبارية في رودس ، وإمبراطور القسطنطينية .

وفي سنة ٧٣٤ هـ / ١١ من نوفمبر سنة ١٣٣٣ م أعلن البابا جناسا الثاني والمشررون أن ملك فرنسا فيليب السادس هو الذي سيقود الحملة الصليبية ، ولكن موت البابا في نفس العام كان سببا في عدم تنفيذ هذه الحملة في الموعد المحدد لها . ومع ذلك فقد ظلت الاستعدادات في فرنسا على قدم وساق ، واحتشدت في الموانئ سفن حربية كثيرة ، وأخذت الحشود الحربية الصليبية تأتي من كل مكان حتى بلغت عدتهم مائة ألف رجل ، ولكن خابت الآمال بقيام حرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا ، ولم

(١) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

(١)
تقم لهذه الحملة قائمة .

وترتب على فشل هذه الحملة أن وجد العثمانيون متسعا من الوقت
لترتيب أمورهم على أحسن وجه ، فأنصرف أورخان الى توطيد أركان دولته ،
والى الأعمال الإصلاحية . فنظم الجيش والإدارة ، واستعد بعد ذلك
الى القيام بعمل يعتبر مرحلة جديدة وتطورا هاما فى مجرى حوادث تاريخ الدولة
العثمانية الاسلامية ، وتاريخ أوروبا المسيحية كلها ، ذلك هو نزول العثمانيين
فى أوروبا ، وما تلاه بعد ذلك من الفتوحات الواسعة فيها . (٢)

وحدثت أمور مكنت من تحكم العثمانيين فى مصير الدولة البيزنطية ، فأعلنوا
سيادتهم على مقدراتها ، ذلك أنه كان على عرش بيزنطة فى ذلك الوقت
امبراطور صبي عهد بالوصاية عليه الى والدته أنا (Anna) والى رجل
يدعى جئا كيتاكوزين (John Cantaguzene) وكان هذا الرجل
طموحا لم يقنع بهذه الشركة فى الوصاية . وطبع فى أن يكون له شئ من
الملك ، وعارضته الامبراطورة الأم ، وقاومته طويلا ، واستتصر كل منهما
بالسلطان أورخان العثماني المسلم ، وجاءت الفرصة مواتية للدولة العثمانية

(١) سالم الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ٢٤ ،

Inalcik: The Ottoman Empire, p. 10.

(٢) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ص ٤٨٨ ، فيشر ، تاريخ أوروبا العصور
الوسطى ، ص ٤٤٧ .

للدخول الى أوروبا ، ولذلك آثر السلطان أورخان حنا ككتاكوزين بالمعوننة والنصر . وانتهى الأمر بأن جعل عرش الإمبراطورية بين ككتاكوزين وزوجته أنسا ، وابنها حنا الخامس ، الذى تزوج من ابنة ككتاكوزين توثيكا ، له هذه الرابطة ، كما تزوج أورخان سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م من الابنة الكبرى لحنا ككتاكوزين التى تدعى ثيودورا . وعاد الجنود العثمانيون الى آسيا الصغرى بعد أن أصبحت لهم الكلمة العليا فى بيزنطة . إلا أنه لم يبرق وقت طويل على حنا ككتاكوزين فى قناعته بهذه الشركة فى الحكم ، وأراد أن تكتسبون الإمبراطورية له وحده . وللمرة الثانية استنجد ككتاكوزين بالسلطان أورخان فأعانه بمئشرين ألف مقاتل بقيادة ابنه الأمير سليمان بشرط أن يسلم لهم ككتاكوزين بعد انتصاره قلعة صغيرة على الشاطئ الأوروبى من الدردنيل وهى قلعة تزييمب (TZYMBE) على مسافة غير بعيدة من غاليبولى سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م . (١)

ولم يمض وقت طويل على استقرار العثمانيين فى هذه القلعة حتى حدثت زلزلة عنيفة دمرت كثيرا من المدن ودكت بعض أسوار مدينة غاليبولى (Galipoli) التى تعد أهم حصن بيزنطى أوروبى على الدردنيل . (٢)

(١) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج ١ ، ٤٩٠ هـ
Hidden: The Ottoman Dynasty, p. 19.; Inalcik, op. cit., p. 9.
(2) Inalcik: op. cit., p. 10; Ostrogorsky: op. cit., p. 530.
Creasy: op. cit, pp. 19-20.

واعتقد البيزنطيون والعثمانيون كما يرى Creasy أنها حدث المهي يشير الى شيء ، ولكنهم اختلفوا في فهمه وادراك معناه ومنغزاه ، فالبيزنطيون اعتقدوا أنها غضبة الهية حاقت بهم ، فخارت قواهم ، وفقدوا روحهم المعنوية ، وخرجوا من غاليلولى مدبرين ، وولوا عنها خائفين ، وتركوا المدينة خواء . أما العثمانيون فقد استبشروا واعتقدوا ان الله سبحانه وتعالى أراد بهم خيرا كثيرا فمهّد لهم السبيل للاستيلاء على هذا الحصن المنيع ، وأن ما حدث ما هو الا آية من آيات النصر ، يظهرها الله لعباده المخلصين ، فتثبت قلوبهم وتزيد هم ايماناً . (١)

ومذ لك زحف الأمير سليمان ومعه جنوده المجاهدين على مدينة غاليلولى ودخلوها فى سنة ٧٥٥ هـ ، سنة ١٣٥٤ م بغير حرب ولا قتال (٢) وفى الحال شرع الأمير سليمان بن السلطان أورخان فى اصلاح المدينة واعادة تحصينات القلاع بها وجلب اليها قوات من الأناضول ، ومذ لك غدت مدينة غاليلولى قلعة عثمانية اسلامية ، وقاعدة لغزواتهم ، وفتوحاتهم الاسلامية فى أوربا . فمن غاليلولى انطلقت جحافل الجيش العثمانى المسلم حاملة راية الجهاد الاسلامى تدفعها الرغبة الأكيدة فى نشر الاسلام ، ورفح

(1) Creasy; op. cit., p. 20.

(٢) زينى دحلان ، الفتوحات الاسلامية ، ص ٧٠ ، عبدالباسط الفاخورى ، مختصر تاريخ الاسلام ، ص ١٩٥ ، محمد فؤاد كهرلى ، قيام الدولة العثمانية ، ص ١٨٢-١٨٣ .
Inalcik: op. cit., p. 10.

(١) بنوده على كل مدن أوروبا .

وهذا غدت مدينة غاليبولى نقطة البدء للفتوحات الاسلامية العثمانية فى أوروبا الغربية . وذلك نظرا لمركزها الاستراتيجى الهام ، فهى تسيطر على بحر مرمرة ، وهى قاعدة ارتكاز حربية خطيرة ، وهى بتعبير بعض المؤرخين تعتبر مفتاح أوروبا ، فهى ثغر هام جدا ذو مناعة عسكرية عالية ، وذلك بعد تحصينه من قبل العثمانيين ولذلك فقد جاءت جموع غفيرة من العثمانيين المسلمين للاستيطان فى هذا السهل الأوروبى المطل على بحر مرمرة والذي يضم أيضا جزءا من اقليم تراقيا . وأخذ العثمانيون يعمرون تلك الأماكن الخالية من السكان ، كما هاجر كثير من الفرسان العثمانيين من امارات وسط الأناضول ، ومن امارات السواحل كإمارات قره سى ، وصاروخان ومنشاشا وأيدىين طمعا فى الحصول على اقطاعات زراعية عسكرية ، على درجة كبيرة من الخصوبة فى اقليم الرومللى . وهذا أضحت غاليبولى (Galipoli) نقطة البدء فى الانطلاق منها الى باقى أقاليم أوروبا المسيحية . (٢)

(١) هسى ، العالم البيزنطى ، ص ٢٢٠ ، هامرتن ، تاريخ العالم ، م ٥ ، ص ٤١١ ، فيشر ، نفس المرجع ، ص ٤٤٦ ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٦٤٠ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، ص ٥٩٨ .
Creasy: op. cit., p. 20.; Inalcik: op. cit., p. 11.;
Hedden: op. cit., p. 19.

وأحسن الامبراطور البيزنطى حنا كنتاكوزين بالخطر العثمانى وأدرك فداحة خطئه فى استدعائه للعثمانيين والاستعانة بهم فى أوروبا . وعرض الامبراطور على أورخان إعادة مدينة غاليلولى ، ولكن السلطان أورخان رفض رفضا باتا الانسحاب من غاليلولى . وبحث كنتاكوزين الى الصرب ، والبلغار ، يستحثهم على عقد حلف يتكون من نصارى البلقان لأخراج المسلمين الفاتحين من أوروبا . لكنه لم يلق استجابة منها ، وتدهور موقفه فى نظر سكان العاصمة البيزنطية فقاموا بثورة ضده عام ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م بعد أن أثقلت الضرائب كاهلهم ، واتهموه بأنه يريد تسليم القسطنطينية للعثمانيين المسلمين ، وتم خلعه كنتاكوزين عن العرش . وقضى كنتاكوزين بقية حياته فى الرهينة ثم خلع ابنه ، وعاد حنا الخامس الى عرش بيزنطة الذى بقى فيه وحده دون منازع . (١)

ولكن لم يكن الامبراطور البيزنطى الجديد حنا الخامس أوفر حظا من سابقه حنا كنتاكوزين ، فقد كان يقدر الخطر التركى العثمانى الجاثم على أبوابه ، ولذا وجد أن خيرا ما يفعله هو فتح باب المفاوضات بينه وبين روما لأقامة وحدة بين العاصمتين المسيحيتين والكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية لتقف سدا فى وجه الخطر العثمانى الدايم . وفى سنة ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م ، أى بعد توليه العرش بحام واحد أرسل الامبراطور حنا الخامس خطابا

(١) أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٥٩٨ - ٥٩٩ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٢٤٩ - ١٢٥٠ .

بفصلا الى أفينون يطلب فيه من البابا أن يرسل اليه بخمسين سفن حربية
و ١٥ سفينة نقل تحمل ألفا من المشاة وخمسمائة من الفرسان ، وفي مقابل
ذلك وعد البابا بأن تتحول كل الرعية البيزنطية من المذهب الأرثوذكسي الى
الحقيدة الكاثوليكية خلال ستة أشهر . وضع البابا الضمانات الكافية
للوفاء بذلك العهد كما أنه وعد بإرسال ابنه الصغير وكان يدعى مانويل
الى البلاط البابوي ليتلقى تعليمه على يد البابا ، وقطع الامبراطور حنا
الخامس على نفسه عهدا بأن يتخلى عن العرش اذا أخفق في الوفاء بعهده ،
تاركا البلاد في حوزة ابنه الصغير الذي تم تعليمه على يد البابا . ويسندو
أن البابا انوسنت السادس لم يأخذ هذا الأمر بجدية ، فقد أرسل البابا
الى الامبراطور حنا الخامس خطابا يشكره فيه على عواطفه ، ومشاعره الحارة
نحو تحقيق وحدة الكنيسة . واضطر الامبراطور على أثر تلك الاستجابة
الفاترة من البابا الى ابلاغ روما بأنه غير قادر على اقناع شعب بيزنطة^(١)
بقبول الاتحاد وخاصة أن رد البابا لم يكن مدعوما بسفن حربية مسلحة . وكان
ذلك نتيجة طبيعية لما صار اليه نفوذ الكنيسة من الضعف ، فانها كانت
حينذاك على غير وئام مع عواهل أوروبا ، كما كانت البابوية عند منتصف

(١) هسي ، العالم البيزنطي ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، نبه عاقل ، الامبراطورية
البيزنطية ، ص ٣٤٤ - ٣٤٦ ، عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية
البيزنطية ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ، سالم الرشيدى ، محمد الفاتح ،
Ostrogorsky: op. cit., pp. 534-535: Hidden: ص ٢٦ - ٢٧ ،
op. cit., p. 23.

القرن الرابع عشر الميلادي أضعف من أن تحيي الحماسة الصليبية بحمد
موتها . (١) واستفاد العثمانيون من ذلك كله إذ قاموا بحركة التتفاف
حول القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية .

• • • • •

(1) Vasiliev: op. cit., Tome 2, pp. 369-370.

الفصل الثاني

العثمانيون وحركة الاثنياف حول القسطنطينية

- استيلاء العثمانيين على أدرنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م .
واتخاذها عاصمة .
- استيلاء العثمانيين على مقدونية ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م .
- انتصار العثمانيين في معركة قوصوه (كوسوفشا) .
- انتصار العثمانيين على التحالف البيزنطي الأوربي في
موقعة نيقوبوليس ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م .

استفاد السلطان مراد الأول ، ثالث سلاطين البيت العثماني من
الفرص التي كانت سائدة في البلقان وأوروبا في ذلك الوقت ، فقد كانت الحرب
المشتملة بين الجمهوريتين الايطاليتين التجاريتين جنوة ، والبندقية سببا في
تلك الهوة السحيقة التي زادت مع الزمن عمقا بين الكنيستين الكاثوليكية في
روما ، والأرثوذكسية في القسطنطينية ، ولذا كانت الظروف مهيأة تماما أمام
السلطان مراد الأول لتدخل الأتراك العثمانيين في البلقان . (١)

(٢) ونظر السلطان مراد الأول لمدينة أدرنه (Adrianople)
نظرة هامة وذلك لموقعها الجغرافي الهام وسط هذه البلاد التي كان معظم
أهلها يدينون بالمسيحية ، وكانت أدرنه تقع على ثلاثة أنهر ، وهي بذلك
الموقع الجغرافي الهام تعتبر قاعدة حربية مهمة للعثمانيين اذا تم فتحها ،
وذلك لقربها من ميادين القتال في أوروبا ، يضاف الى ذلك أن أدرنه كانت
تبعد عن القسطنطينية بخمس وتسعين ميلا فقط ، وهي تعد المدينة الثانية

(1) Ostrogorsky: op. cit., p. 520.; Creasy: op. cit., p. 28.

(٢) أدرنه : واسمها ادرنا نوموليس (Adrianoplies) نسبة الى
الامبراطور الروماني ادریان أوهدريان ، الذي أجرى فيها عدة
تحسينات أوجب إطلاق اسمه عليها .
أنظر : محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٤٤ ، فيليب حتى ، خمسة
آلاف سنة في تاريخ الشرق الأدنى ، ص ١١ .

بعد القسطنطينية^(١) لهذا رأى السلطان مراد الأول أن مدينة أدرنة
بعد الاستيلاء عليها سوف تصبح مركزا طيبا لجميع أبناء المسيحيين لتجنيدهم
في الجيش الاسلامي^(٢).

لذلك بحث السلطان مراد الأول قائده لا لا شاهين (Lalasch- ahin) الى فتح مدينة أدرنه في سنة ٧٦٣ هـ / سنة ١٣٦١ م في جيش
كثيف . وعندما اقترب لا لا شاهين بالجيش العثماني الاسلامي من المدينة
خرج اليه القائد البيزنطي تكوريم مع عدد كبير من الجند ، واشتبك
الجيشان واشتد القتال . وكانت كلمة (الله أكبر) في الجيش الاسلامي
تهز قلوب جنود الأعداء من المسيحيين ، وتفسح المجال أمام جيوش المسلمين
العثمانيين في كل جبهة . وسقط أمراء البلقان في قبضة العثمانيين
الواحد تلو الآخر . واستطاع العثمانيون بعد جهد جهيد أن يوقعوا بأعداء
الاسلام والمسلمين هزائم منكرة ، بعد أن تزلزلت قلوب أعدائهم خوفا ،
ورعبا . وفر القائد البيزنطي بعد أن رأى أناسا باعوا الحياة الدنيـا
بالآخرة ، وجاهدوا جهادا المستميت في سبيل الله ونشر دينه بين رعايهم

(١) مخطوط تاريخ آل عثمان ، مجهول المؤلف ، مخطوط (باستانبول) ، ورقة ٢ ،
محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٤٥ ، كمال الدسوقي ، الدولة
العثمانية ، ص ٢٢ .
(٢) فيشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ق ٢ ، ص ٤٥٣ ، كمال الدسوقي ،
الدولة العثمانية ، ص ٢٢ .

البلقان . ودخل المسلمون أدرنه بالتهليل والتكبير حامدين الله عز وجل
بهذا النصر العظيم ، وأرسلوا للسلطان العثماني مراد الأول مهنئين له
بالفتح العظيم لتلك المدينة التي حولها السلطان مراد الأول من فوره الى
عاصمة اسلامية سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م . وكان من نتائج نقل العاصمة
الاسلامية العثمانية من آسيا الصغرى الى أوروبا ، أنها أصبحت مركزا مهما
لانطلاق آل عثمان بعد ذلك للجهاد في سبيل الله ونشر الدين الاسلامي
في أوروبا عامة ، وفتح القسطنطينية . (١)

وقد أتت أدرنه بعد ذلك مركزا للحكومة الاسلامية فتكونت فيها فئات
الموظفين وفئات الجند ، وأقبل عليها علماء الدين الاسلامي ، وتأسست
المحاكم ، ونهضت المدارس العسكرية لتعليم الانكشارية . وهذا الفتح
العظيم لأدرنه فصلت القسطنطينية عاصمة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية
عن بقية ممتلكاتها في البلقان ، وسد عليها الطريق الى حلفائها في أوروبا ،
ولاسيما الشعوب السلافية . (٢)

(١) مخطوط تاريخ آل عثمان ، مجهول المؤلف ، ورقة ٦ ، سردينيا ،
حقائق الاحبار ، ص ٤٩ ، فيشر ، نفس المرجع ، ص ٤٥٣ ، هسي ،
العالم البيزنطي ، ص ٢٢٢ ، الشناوي ، نفس المرجع ص ٦٠١ .
(٢) فيليب حقي ، نفس المرجع ، ص ١١ ، أومان ، الامبراطورية البيزنطية ،
Cam. Hist. of Islam I, pp. 275-276. ص ٢٥٢

وطبق السلطان مراد الأول بتلك الجهات نظامه المحبب اليه
فى منح الأراضى الزراعية لكبار الضباط فى جيشه نظير تقديمهم لعدد من
الفرسان فى أوقات الحروب مجهزين بخيولهم ، وسلاحهم ، ومؤنهم^(١)
ليما ونوه فى حروبه . . . وكان يطلق على هذا النظام الاقطاعى نظام التيمار
(Timar) ، وكان هؤلاء الفرسان يعرفون بالسباهية .
واشتهر السباهية بالشجاعة والاقدام ، وحب الاستشهاد فى سبيل الله
عز وجل ، ولم يكونوا يكلفون الدولة العثمانية أية مشقة ، أو نفقات فى
اعدادهم ، وتدريبهم التدريب الاسلحى السليم .

ولكن لماذا لم يتم السلطان مراد الأول العثمانى العمل الذى كان
قد بدأه وقام بفتح القسطنطينية نفسها ؟

(١) التيمار (Timar) : هو نظام وضعه تيمورطاش وزير السلطان
مراد الأول لفرق الخيالة العثمانية المسماة بالسباهية . بحيث أقطع
كل نفر منهم جزءا من الأرض يزرعه المزارعون سواء من المسيحيين
أو المسلمين بشرط أن يسكن المقطع لديه وقت السلم ويستعمله
للحرب عند الاقتضاء على نفقته ، ويكون هؤلاء الفرسان مدربين تدريباً
عالياً بخيولهم وسلاحهم ، وزادهم ، يتناسب مع مساحة الإقطاع
وأهميته ، فكان أصحاب الإقطاعات الزراعية الكبيرة يقدمون عدداً من
الفرسان أكبر من أصحاب الإقطاعات الصغيرة .
أنظر :

يبدو أن السلطان مراد الأول كان يدرك ضعف الامبراطورية البيزنطية وقتذاك ، ولذلك أراد أن يقضى على أعدائه من الصربيين ، والبلغار أولاً ، وكذلك أمراء آسيا الصغرى ، ثم يعود بعد ذلك الى القسطنطينية لتكون نهاية المخالف . وفى الحقيقة كان السلطان مراد الأول قادراً على الاستيلاء على القسطنطينية سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م لأنه حتى قبل سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م لم تستطع الامبراطورية البيزنطية أن تقوم بدورها القديم باعتبارها " حصن المسيحية ضد الدولة العثمانية . وقد أطلال أفراد أسرة باليولوفوس بخضوعهم المهيمن للدولة العثمانية (١) من عمر الامبراطورية البيزنطية التى كانت آيلة للسقوط والانحيار .

وازاء هذا الخطر المتمثل فى فتح مدينة أدرنة ، والخوف من التوغل العثمانى فى البلقان قام البابا أوربان الخامس (Urban V) بمحاولة صليبية لجمع أوروبا مرة أخرى فى حرب صليبية ضد المسلمين العثمانيين (٢) لغير أن أحوال أوروبا كانت فى ذلك الحين لا تسمح بقيام تلك المحاولة . فانشغال إنجلترا ، وفرنسا بحرب المائة عام ، وانشغال جنوة والبندقية بالحرب والتنافس بينهما ، أجهل هذا المشروع للبابا أوربان الخامس فلم يلب دعوته سوى حكام شبه جزيرة البلقان ، وبخاصة الصرب ،

(١) جميل بينهم ، فلسفة التاريخ العثمانى ، ص ٢٣٤ ،

Thompson: The Middle Ages, Vol. 2, p. 891

(2) The Cam. Hist. of Islam I, pp. 275-276.

(١) والبلغار ، والمجريين ، وسكان اقليم ولاشيا .

غير أن الدولة البيزنطية ، وهى صاحبة المصلحة الأولى فى هذا الفرض الذى أقيم من أجله هذا التحالف ، لم تنضم اليه ، فوقفت موقفا سلبيا ، لأن علاقاتها بالبابا كانت سيئة ، بل انها كانت تشك فى نواياه نحوها ان هو تمكن منها ، خاصة وأن كل البابوات كانوا دائما يطمعون فى السيطرة على كنيسة الدولة البيزنطية . (٢)

استطاعت القوى الأوروبية المشتركة فى هذا التحالف الصليبي أن تحشد جيشا كبيرا بلغ عدده ستين ألف جندي صليبي ، تصدى لهم القائم —
العثماني المسلم لالا شاهين (Lalaschahin) بقوة تقل عددا عن القوات الصليبية المتحالفة على الاسلام . وقابلهم سنة ٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ م ، على مقربة من تشيرمن (Tchirmen) على نهر ماريتزا (Maritza) .
وعهد القائد العثماني الى أحد مساعديه ويدعى حاجي البيكي (Hadji Ilbeki) بمباغتة هذه القوات الصليبية المتحالفة ، واقتحم القائم —
العثماني المعسكر المسيحي ومعه أربعة آلاف فارس مسلم ، وأوقع فيهم
الوعب ، ولم يلبثوا الا قليلا وسط النداءات الاسلامية ، حتى ولووا

(١) كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) الشناوي ، نفس المرجع ، ص ٦٠٣ .

الأدبار تاركين الثرى مخضبا بدمائهم • وأطلق على مكان هذه الواقعة
(هزيمة الصرب) وعرف قائد الفرسان العثماني بأنه " أسد الحرب وسند
الاسلام " . (١)

ونجم عن هذه الهزيمة الساحقة لهذا التحالف المسيحي ، وهذا
الانتصار العثماني أن استكمل العثمانيون فتح اقليم تراقيا ، ومقدونيا
الذى كان بداية لاستسلام أراضي السلافيين الجنوبيين • وبالتالي أصبح
تهديدا خطيرا للوجود البيزنطى فى المنطقة كلها حيث أدى هذا بدوره
الى موقعة قوصوه (كوسوفا) Kossova سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م . (٢)

وكانت جمهورية راجوزة (Raguse) فى دلباشيا قد أعلنت ولائها
للسلطان العثماني مراد الأول حيث أوفدت اليه بعثة سياسية عقدت معه
معاهدة ودية ، وتجارية ، سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م تعهدوا فيها بدفع
اتاة سنوية للدولة العثمانية المسلمة ، مقدارها خمسمائة قطعة ذهبية ،
وكانت هذه أول معاهدة أمضيت بين العثمانيين ودولة مسيحية • (٣) ووصل

(١) الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٠٤ ، كمال الدسوقي ، نفس المرجع ص ٢٣ .

(٢) كهريلى ، قيام الدولة العثمانية ، ص ٢٨٢ ، عبد القادر اليوسف ،
الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٠ ، نبيه عاقل ، الإمبراطورية البيزنطية ،
ص ٣٤٧ . Cam. Med. Hist. Vol. 4, p.672

(٣) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٤٥ ، الشناوى ، نفس المرجع ص ٦٠٤ .

العثمانيون بعد ذلك الى جنوى بلغاريا ، وشرق الصرب سنة ٧٦٨ هـ /
سنة ١٣٦٦ م . وفى عام سنة ٧٧٨ هـ / سنة ١٣٧٦ م فتح العثمانيون
المدينة القوية نيسا (١) (NISSA) مما أدى بأمر الصرب لآزار
(Lazar) الى طلب الهدنة ، وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها
ألف قطعة فضية ، ونهج هذا النهج سيثمان (Sischman) ملك
بلغاريا ، بعد أن طوقه العثمانيون فى نيقوبوليس على نهر الدانوب ،
وقبل أن يدفع للعثمانيين اتاوة ، وأن يزوج ابنته للسلطان مراد الأول ،
ولكن لما تأخر سيثمان ملك بلغاريا فى دفع الاتاوة للسلطان مراد الأول
شن العثمانيون عليه سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م حربا خاطفة واستولوا على
مدينة صوفيا ، بعد حصار استمر ثلاث سنوات من سنة ٧٨٣ هـ / سنة
٧٨٥ هـ (سنة ١٣٨١ م — سنة ١٣٨٣ م) . وانطلق العثمانيون بعد
ذلك فى قلب البلقان ، وفتحوا عددا آخر من المدن أهمها مدينة سالانيك
التي فتحها الصدر الأعظم خير الدين باشا . (٢)

(١) مدينة نيسا : ويقال لها نيش : مدينة فى جنوب الصرب ، واقعة على
الطريق الموصل الى القسطنطينية وسالانيك (أنظر : محمد فريد ، الدولة
العلية ، ص ٥٧) .

(٢) Hogarth: The Balkans, P.327; Marriatt:History of Europe, p. 65.

وسالانيك ، بلد من أعمال مقدونية فى طرف خليج سالانيك شرق مصب نهر
وردار ، عند سفح تل يشرف عليها من الشمال الشرقى ، وهى البلدة
اليونانية القديمة التي شيدها كاساندر (Cassander) فى جنوب بلاد
مقدونية على بحر الارخبيل على موقع ثرما (Therma) . وقد أطلق على
المدينة اسم زوجته أخت الإسكندر الأكبر الكبيرة المسماة (سالونيك) .
(أنظر : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ١٢ ، ص ٥٧) .

وسبب هذا التوسع الكبير والسريع للدولة العثمانية لم يلبث أن واجهه
العثمانيون خطر تحالف بلقاني صليبي ، تكون ضد العثمانيين سنة ٧٨٩ هـ
/ ١٣٨٧م بقيادة الممالك السلافية في شمال القسطنطينية وغربيها ، فعقد
لازار (Lazare) ملك الصرب معاهدة تحالف مع سيثمان (Sisco-
hman) ملك بلغاريا ، واستهدف الملكان اعداد حملة كبيرة ضد العثمانيين ،
وقد ضمت هذه الحملة عدا القوات الصربية والبلغارية قوات من البشناق ،
والمهرسك ، ومن البانيا ، وولندا ، والمجر ، ودبروجه (١) .

وتحالفت كل هذه القوات ضد السلطان العثماني المسلم مراد الأول ،
وحصلت على مساعدات من سكان ولاشيا الذين كانوا من أصل روماني ، ومن
المجريين . أما روسيا رأس العائلة السلافية ، فقد كانت ترزخ في ذلك
الوقت تحت وطأة أقدام المغول ، كما أن الدول المسيحية في غرب وشمال
أوربا كانت تنظر الى هذا التحالف بدون اهتمام يذكر . لأن السلاجقة
الصليبية في الغرب كانت قد ضعفت ولم يعد هناك فائدة ترجى لتبليبة

(١) البشناق : Les Bosniaques هم أهل إقليم البوسنة ، والمهرسك :
إقليم جبلي في أوربا الشرقية وهو حاليا جزء من يوغوسلافيا ، ويطلق
المهرسك أيضا على سكان هذا الإقليم ، ودبروجه : إقليم من أقاليم
رومانية الحالية .
أنظر : الشناوي ، نفس المرجع ، ص ٦٠٥ ، فيشر ، تاريخ أوربا
العصور الوسطى ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ - ٤٥١ .

النداء الصليبي ضد العثمانيين المسلمين ، وذلك لأن الأحوال الداخلية في هذه الدول خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، كانت لا تشجع على ذلك التحالف ، كما أن ملك حكام إنجلترا وفرنسا وألمانيا في أواخر القرن الثامن الهجري كان يعكس ما ظهر من ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس ، وفردريك الثاني ، وفيهم من ملوك أوروبا الصليبية ، والذين كانوا قد خرجوا قبل ذلك على رأس حملات صليبية . (١)

وطلب المتحالفون الصليبيون من البابا أوربان الخامس (Urban V) أن يحرض أوروبا النصرانية لمساعدتهم ، ولكن دون جدوى . وقام البلغاريون ، والصربيون ببدء القتال . وذلك بمفاجأة جيش عثماني كان يتحرك عبر البوسنة ، وبلغت القوات التي حشدت قرابة مائتي ألف جندي صليبي (٢) استطاعوا إيقاع هزيمة عسكرية أليمة بالعثمانيين في معركة بلوشنيك (Plochnik) سنة ١٣٨٩ / ٧٨٩ م . (٣) وهذا المسيحيون بعد هذه الهزيمة المؤلمة حقاً للعثمانيين . ورأى الوزير العثماني على باشا كاجراء عسكري مؤقت - أن يعمل على الفصل بين الصرب ، والبلغار ، فهاجم شمالى بلغاريا ، وانزع من سيستان ملك البلغار عدة مدن ، أهمها (Tirnova) وشوملا

(١) فيشر، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ ، نوار، الشعوب الإسلامية ، ص ٣٥ ، كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٢٤ .

(٢) الشناوي ، نفس المرجع ، ص ٦٠٥ .

(٣) سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ص ٦٤١ ، Ostrogorsky: op. cit, p. 54; Inalcik: op. cit, p. 15.

(Choumla) • وألجأ سيثمان ملك بلغاريا الى الفرار ، والتحصن في نيقوبوليس^(١) على الدانوب ، والتي حاصرها على باشا في الوقت الذي وصل فيه السلطان مراد الأول قادما من الأناضول • وهرع سيثمان ملك بلغاريا لمقابلة صهره السلطان مراد الأول زوج ابنته يطلب اليه الصلح • وقد استجاب له السلطان مراد الأول^(٢) على أن يدفع الاتاوة المتأخرة ، وأن يستولى على مدينة سيليستره (Silistria) ، ولكن سرعان ما دبت^(٣) الخلاف بينهما قبل توقيع معاهدة السلام واستؤنفت الحرب من جديد • وهاجم العثمانيون المسلمون وعلى رأسهم على باشا مدينة نيقوبوليس مرة أخرى وحاصروها ، وشدد الهجوم على حامية المدينة • وخرج سيثمان ومعه زوجته وأولاده أمام على باشا ، فأجالهم الأخير الى السلطان العثماني مراد الأول الذي عفا عن صهره وأبقى على حياته وحفظ له عرشه •

أما لازار ملك الصرب ، فضايقه ما حدث ، وقام بجمع القوات الباقية من أعضاء الحلف الصليبي ، واستعدت هذه القوات الصليبية المتحالفة لمعركة فاصلة ، وفرت ملك الصرب هذه القوات الكبيرة المدد التي حشد لها ،

(١) نيقوبوليس : معناها مدينة النصر أسسها الإمبراطور الروماني تراجانوس المتوفى سنة ١١٧ م •

(٢) محمد فريد ، الدولة الحلية ، ص ٤٦ — ٤٧ ، Inalcik: op. cit., pp. 10-11.

(٣) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ص ٢٦ ، Creasy: op. cit., pp. 28-29.

(٤) الشناوي ، نفس المرجع ، ص ٦٠٦ •

وداخله الفخر ، والثقة فى النفس ، حتى أنه أرسل الى السلطان — مراد الأول العثمانى يتحداه الى معركة فاصلة . (١)

تولى السلطان مراد الأول بنفسه القيادة ، وجمع مجلس الحرب ، ومجلس الشورى ، ليناقتشهم فيما اذا كان من الأصوب مهاجمة أعدائه ، الذين يفوقون قواته فى العدد ، ورأى الكثير من قادته أنه من الأصوب وضع الجبال بحمولتها فى الصف الأمامى للجيش ، حتى تكون ستارا حاميا ، وفى الوقت نفسه تحدث الاضطرابات فى خيول الأعداء بمنظرها ، ورائحتها . لكن الأمير بايزيد الأول الابن الأكبر للسلطان مراد الأول عارض هذا الرأي وقال : ان القدرة الالهية تساند دائما البيت العثمانى الذى يجاهد فى سبيل الله ولاعلاء كلمة التوحيد ، ونشر دين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، " وأنه يجب علينا أن نواجه أعداء الله وجها لوجه ، وأن يكون هذا العدو هو هدفنا فى الشهادة أو النصر " . ثم فتح الأمير بايزيد القرآن الكريم على الآية التى تقول (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بآذن الله . . .) (٢) ثم هذه الآية (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال

(١) بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ٢٦ ، يوسف أضاف ، سلاطين آل عثمان ، ص ٢٨ ، سالم الرشيد ، محمد الفاتح ، ص ٣٠ .

(٢) سورة البقرة — آية ٢٤٩ .

ان يكن منكم عشرون صابرون يخلبوا مائتين وان يكن منكم مائة صابرة يخلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون (١) واستبشر المسلمون بالنصر ، وما النصر الا من عند الله . (٢) وقضى السلطان مراد الليل بطوله ضارعا الى الحولى سبحانه وتعالى فى صلاة حارة ، طالبا منه العون على أعدائه الصليبيين ، والشهادة فى سبيل الله واعلاء كلمة لا اله الا الله . (٣)

أما الجانب الآخر الصليبي ، فلم تنته مداولات أمراءه الطويلة الى نتيجة حاسمه ، فالبعض نصح بقيام هجوم مباغت على العثمانيين فى الليل ، وذلك للانتقام من مأساة نهر ماريتزا ، (٤) قبل ذلك بست وعشرين سنة . ولكن الفريق الآخر عارض هذا رأى ، وذلك لما يحويه من مخاطرة كبيرة ، فالعدو بذلك يكون له فرصة الهرب فى الليل ، وذلك خلافا للنهار ، حيث لا تكون لديه أية فرصة للهرب من النصر المرتقب . وكأن القدر وحده هو الذى كان يقودهم للهزيمة الشنعا ، كيلا يستطيعوا هم الفرار فى الليل (٥) من وجه العثمانيين المسلمين ، وذلك فى وقعة قوصوه (Kossova) .

(١) سورة الأنفال ، آية رقم ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٢٦ .

(٣) على سقيم ، الترك والاسلام ، ص ٦٧ .

Creasy: op. cit., pp. 29-30.

(٤) أنظر ما سبق ص ٥٨ .

(٥) الشناوى ، أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، ص ٦٠٦ .

Inalcik: op. cit., p. 15; Ostrogarsky: op. cit., pp. 546-547.

وأخيرا أشرق النهار على المعسكرين ، وعند الفجر هطلت أمطار غزيرة أزاحت الضباب ، ومدت هذه الأمطار للسلطان مراد الأول وأتباعه كعلامة تدل على أن الله معهم . وتوقفت الأمطار بعد قليل ، وخرج الجيشان من الخيام الى ميدان المعركة استعدادا للقتال ، ونظم العثمانيون صفوفهم على الطريقة المعتادة ، حيث كان الأمير بايزيد الأول يقود الميمنة ، وكان أخوه الأمير يحقوب يقود الميسرة ، هذا في الوقت الذي كان السلطان مراد الأول بنفسه في القلب مع قواته الرئيسية ، وفرسان حرسه ، أما في الجانب المسيحي الصليبي ، فقد كان الملك لازار Lazar يقود القلب ، وابن أخيه يقود الميمنة ، وملك البوسنة يقود الميسرة . (١)

واندفع الجيشان في حماسة وقوة ، والتقى بعنف ، وكانت أحداث ذلك اليوم متأرجحة قليلا ، فقد تراجعت القوات الآسيوية في الجناح الأيسر لجيش المسلمين أمام محاربى الصرب الذين أخذوا يدفعونهم الى الجناح المسيحي الأيمن . ولكن الأمير بايزيد أحضر نجدات من الميمنة ودخل المعركة ، وحارب بنفسه وبدرعه الثقيلة في قلب المعركة . (٢)

وانجلى المعركة أخيرا عن انتصار المسلمين انتصارا باهوا ، وحاسما ،

(1) Creasy: op. cit., p. 31.

(2) Creasy: op. cit., p. 31.

وأُغتيل السلطان مراد الأول قبيل نهاية المعركة بيد أحد نبلاء الصرب حيث طحنه بخنجر^(١) ، وأسر لازار ملك الصرب ، وقتله الانتكشارية انتقاماً منهم لمقتل سلطانهم مراد الأول . ووقع الكثير من المتحالفين الصليبيين في الأسر من أمراء وملوك أوروبا ، وكانت هذه هي أحداث موقعة قوصوه (Kossova) كوسوفا في سنة ٧٩٢ هـ / ١٥ من يونيو سنة ١٣٨٩ م .^(٢)

وهذه الهزيمة النكراء في قوصوه (Kossova) ، فقدت الصرب استقلالها ، وانتشر الاسلام بين الصربين ، حيث تحول عدد كبير من الأشراف الاقطاعيين القدامى الى الاسلام بمحض ارادتهم اذ وجدوا انهم من المتعذر عليهم الهجرة الى البلاد المسيحية المجاورة ورغبوا في الحفاظ على امتيازاتهم القديمة من ناحية أخرى . وكان العثمانيون قد قرروا ، الابقاء على هذه الامتيازات لمن يعتنق الاسلام . كذلك فقد البلغار

(1) Lodge: The Close of the Middle Ages, p. 503.

(٢) هامرتن ، تاريخ العالم ، المجلد (٥) ، ص ٤١١ ، محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٤٧ - ٤٨ ، فيشر ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ق ٢ ص ٤٥٠ - ٤٥١ ،

Creasy: op. cit., pp. 31-32; Charles Diehl: History of the Byzantine Empire, p. 163.

ممتلكاتهم في البلقان ،^(١) وأتيح بذلك للقوات العثمانية المسلمة أن تنسحب مرة أخرى جديدة فوق الأراضي البلقانية . وهذا ظهر للعالم المسيحي الصليبي بأن الأتراك العثمانيين المسلمين يمكن أن يبقوا في منطقة البلقان كقوة كبرى متفوقة ، ولا يمكن الوقوف في وجه التوغل الاسلامي العثماني في شرق أوروبا .^(٢)

أعلن بايزيد الأول الذي يطلق عليه الصاعقة سلطانا بعد مقتل أبيه في قوصوه ، فجنى بذلك ثمار النصر الذي دفع والده السلطان مراد الأول حياته ثمنا له . وفي تلك الأثناء توفي الإمبراطور البيزنطي حنا الخامس سنة ١٣٩١م ، فخلفه ابنه مانويل الثاني الذي اضطر هو الآخر الى الاعتراف بالتبعية العثمانية .^(٣)

ورأى السلطان بايزيد الأول أن يقيم علاقات ودية مع ما تبقى من دولة الصرب ، وقد استهدف السلطان بايزيد الأول من وراء هذه السياسة اتخاذ الصرب دولة حاجزة بينه وبين دولة المجر ، ولذلك لم يجد ستيفن بمن لا زار

(١) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج ١ ، ص ٤٩٢ ، الشناوى ، نفس المرجع ،
Creasy: op. cit., p. 32. ص ٦٠٧ — ٦٠٨ .

(٢) سرهنك ، نفس المرجع ، ص ٤٩٢ — ٤٩٣ ، على سفيهم ، الترك والاسلام ،
ص ٨ ، نبیه عاقل ، نفس المرجع ، ص ٣٤٨ .

Gibbons: The foundation of the Ottoman Empire, pp. 198-199.

ملك الصرب بدا من أن يعلن خضوعه ، وتبعيته للسلطان بايزيد الأول الذى تزوج من أخته المسماه أوليفيرا ، (Olivera) (١) .

ومضت الفتوح الاسلامية العثمانية بعد ذلك فى البلقان بلا عائق . وقد بحث السلطان بايزيد الأول بجيوشه الى بلغاريا فاكسحها ، واستولى على اقليم ولاشيا (رومانيا الحالية) . وسقوط مدينة تيرنوفو (Tirnovo) فى سنة ١٣٩٦ هـ / ١٣٩٣ م فى يد العثمانيين ، تمت سيطرتهم على كـل بلغاريا . (٢)

وكانت الأحوال فى أوروبا فى ذلك الوقت خلال الربع الأخير من القرن الثامن الهجرى — أى الربع الأخير من القرن الرابع عشر — كانت تبدو مهيأة لحرب صليبية ، حيث كان الضغط العثمانى على الحدود الجنوبية الشرقية للبلاد الأوربية يدعو لقيام حرب صليبية ، وكان لسقوط ويديــــن Widdin فى أيدي العثمانيين ما جعل سجمند (Segismund) ملك المجر يثير أتباع المسيحية الكاثوليكية ضد هؤلاء الأعداء الجدد لهم وهم العثمانيون المسلمون . يضاف الى ذلك أن الفتوحات الاسلامية فى شمال نهر الدانوب قد أحدثت أيضا رعبا لدى المجرىين ، والولش وغيرهم ، فوجود تلك

(١) الهناوى ، أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ص ٦١٠ .

(٢) الهناوى ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٦١١ . Ostrogorsky: op.

cit., p. 849. بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

الحامية العثمانية الاسلامية الصغيرة في مدينة نيقمبوليس هو الذي شجّع
(١) المسيحيين في كثير من البلدان للاشتراك في هذا التحالف الصليبي الأوربي .

وفي سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م أصدر البابا بونيفاس التاسع
Boniface IX في مدينة روما مرسومين صليبيين ، يدعو فيهما إلى
حملة صليبية في شرق أوروبا ، مع منح الفخران لكل من يشترك ضد العثمانيين
المسلمين . (٢)

وانتشر دعاة الحملة الصليبية التي يقودها سجنسند والبابا بونيفاس
التاسع وكثير من أعضاء الكنيسة اللاتينية ، فعلى سبيل المثال اجتمع مائة
فارس فرنسي عند مدينة بودا (BUDA) ومنحوا ملك المجر خدماتهم
ضد المسلمين ، وساعدهم على ذلك توقف حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا
في ذلك الوقت وتوقيع الهدنة بينهما . (٣)

وفي نفس الوقت حصل وليم مارشال برجنديا على تعليمات بالذهاب إلى
بودا ليخبر سجنسند باستعداد دوقات برجنديا ، وأورليان ، ولانكستر
للاتفاق على مشروع هذه الحملة الصليبية . وفي سنة ٧٩٨ هـ / سنة ١٣٩٥ م

(1) Atiya: The Crusade in the later; p. 436.

(٢) سالم الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ٣٢ ;

Atia: op. cit., p. 436/ Hidden: op. cit., p. 27.

(3) Atiya: op. cit., p. 436 ; Creasy: op. cit., p. 35.

بدأت المفاوضات لاعداد الحملة الصليبية في جمهورية البندقية التي كان موقعها الجغرافى مناسباً لكل الأطراف المتحالفة وكان لموافقتها ، وتعاونها من الأمور الأساسية لنجاح أية حملة صليبية ضد المسلمين العثمانيين . ووصل الصليبيون الى مدينة بودا (BUDA) ، وكان هذا على وجه التقريب فى سنة ٧٩٩ هـ / يوليو سنة ١٣٩٦م ، ووصلت الفرقة الانجليزية أيضاً فى نفس الوقت تقريباً . واشتركت فى الحملة الصليبية أربعة أروبا كلها ، بقواتها وفرسانها ، ألمانيا ، وانجلترا ، واسكتلندا ، وسويسرا ، ولوكسمبورج ، والأراضى المنخفضة الجنوبية ، وبعض الامارات الإيطالية . وقدمت البندقية الأموال والأسطول اللازمين . . كما انضمت الى الحملة قوات من بولنده ، واقليم ولاشيا ، واقليم ترنسلفانيا . . وتجمع حوالى مائة وعشرين ألف مقاتل من مختلف هذه الجنسيات بقصد القضاء على توسع الدولة العثمانية الاسلامية داخل الدولة المسيحية الصليبية وخاصة الدولة البيزنطية . (١)

ومحمد أن عقد مجلس الحرب للنظر فى الخطط الحربية الصليبية ، رغب الملك سجمند فى اتباع تكتيكات عسكرية دفاعية ، وانتظار العثمانيين فى قواته المجرية . ولكن اقتراحات الملك سجمند لقيت رفضاً كبيراً من جانب قادة الفرق الأوربية الأخرى الذين أتوا كما ذكر المؤرخ المعاصر (FROISSART) " لغزو دولة الأتراك كلها . والمسير الى امبراطورية فارس ، ومملكة الشام والأراضى المقدسة " . ونجحوا فى فرض ارادتهم على الملك المجرى وخصوصاً النبلاء الفرنسيين . وسارت الجيوش المتحالفة

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ج ٣ ، ص ٢٨ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦١٣
Vasiliev: History of the
الرشيدى ، نفس المرجع ، ص ٣٢
Byzantine Empire, pp. 629-630.

ضد الاسلام والمسلمين على ضفاف نهر الدانوب حتى وصلوا الى مدينة أورسوفنا ، (ORSOVA) (١) . وعبر الصليبيون البوابة الحديدية على مقربة من المدينة ، واندفع الفرسان الفرنسيون في المقدمة وخرجت باقي القوات المسيحية على دفعات ، ففريق اتخذ طريق ترانسلفانيا ، وولاشيا ، وفريق آخر عبر الصرب الى الممتلكات العثمانية ، ومع ذلك فقد ظل ملك الصرب مخلصا على تحالفه مع السلطان بايزيد الأول ، مما كان له أثر سيء عليه وعلى مواطنيه فقد عوملوا بقسوة وشراسة ، من جانب الجيش الصليبي الذي أحدث فيهم جرائم مروعة ، وخصوصا تجاه رعايا الصرب من الارثوذكس الفقراء ، فكانوا يسلبونهم ممتلكاتهم ، وفي طريقهم الى نيقوموليس استولى الصليبيون على مدينة ويدين Widdin وكان يحكم هذه المدينة أمير بلغاري تحت حماية عثمانية ، فسلم المدينة بدون مقاومة ، إلا أن الصليبيين بفدورهم المجهود ذبحوا طائفة الأتراك المسلمين الموجودين بها . كما استولى الصليبيون على مدينة راهوفا (RAHOVA) ، ولكنهم واجهوا في حصارها بعض المشكلات الكبيرة ، وذلك لأن المدينة كانت محاطة بسورين عظيمين ، وكانت تحميها حامية عثمانية مسلحة قوية ، فلما رأى العثمانيون مصير زملائهم في مدينة ويدين ، قاوموا مقاومة شديدة وراء تحصيناتهم ، للدفاع عن المدينة حتى الشهادة في سبيل الله . (٢) ومع ذلك سقطت

(١) الشناوي ، نفس المرجع ، ص ٦١٦ . Atiya: op. cit., p. 443.

(٢) Atiya: op. cit., p. 443.

المدينة أخيرا محمد عناء كبير في أيدي الصليبيين الذين قتلوا سكانها غدرا ،
ما عدا الأغنياء من السكان الذين قبض عليهم طمعا في فداء كبير من المال
وذلك بعد أن أشعلوا النار في المدينة كلها . (١)

وسار الجيش المسيحي الى نيقوموليس ، التي كانت تقع على مقربة من
مدينة OSMA وتواجه وادي ألوتا (ALUTA) وتتحكم في طرق
الدانوب الرئيسية التي تصل ما بين بلغاريا ، وولاشيا ، ويشكل موقعها مشكلة
كبيرة حيث كان يحيط بها سوران عظيمان وأبراج عالية . وأقامت فسى
نيوقوموليس حامية تركية قوية تحت قيادة قائد تركي مسلم يسمى دوجان بك
(Dogan Bay) أو يوجلون بك (Yoglun Bay) (٢) .

وقام القائد التركي المسلم بالدفاع عن المدينة — دفاع المستميت
الذى يطلب الشهادة في سبيل الله — خير قيام على أمل أن السلطان
بايزيد الأول لن يترك هذه المدينة الهامة تسقط في أيدي أعدائه . (٣)

وكان السلطان بايزيد مشغولا في ذلك الوقت بحصار القسطنطينية .
وعندما وصله أخبار التحالف الصليبي بين دول أوروبا المسيحية ، لم

(1) Atiya: op. cit., p. 443.

(٢) الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦١٦ ، Hidden: op. cit.,
p. 27. ; Atiya: op. cit., p. 444.

(3) Creasy: op. cit., pp. 36-37. / Hidden: op. cit., pp.
27-28.

يشغله حصار القسطنطينية عن دعوة كل قوات العثمانيين في آسيا وأوروبا فاجتمع لديه كل فرق الجيش ومنها أحد عشر ألفا من السباهي في عاصمته .

اجتمعت الجيوش العثمانية في أدرنه ، عاصمة العثمانيين في ذلك الوقت ، واضطر السلطان بايزيد الأول لرفع الحصار عن مدينة القسطنطينية ليواجه التجمع الصليبي فخرج من أدرنه الى وادي ماريتزا ، ثم الى مدينة فيليولى ، حيث اكتمل عدد الجيش العثماني بكل فرقته . (١)

أخذت الجيوش العثمانية الطريق المباشر عبر جبال البلقان وتقدمت الى منطقة نيقوموليس على نهر الدانوب ، وأقامت معسكرها في ٢٤ من سبتمبر سنة ١٣٩٦ م / سنة ٧٩٩ هـ على مرتفعات حصينة على مقربة أرمحة أيمسال جنوب الدانوب . وكان يقع بينهم وبين النهر سهل فسيح كانت تطل عليه مدينة نيقوموليس ، ثم بعد ذلك تحصينات المدينة نفسها . وكانت قيادة السلطان بايزيد الأول للجيش العثماني المسلم أحسن بكثير من قيادة أعدائهم الصليبيين وخاصة الفرنسيين الذين اجتاحتهم الضرور ، والثقة في أنفسهم حيث كانوا يتخيلون أنهم أمام معركة بسيطة ، وأنهم أمام قوم بحيديين كل البعد عن النظام ، والطاعة للأوامر ، ولم يتوقعوا أنهم أمام قوة المسلمين جنود الله في الأرض . ولم يتصوروا أنهم يحاربون أناسا باعوا أنفسهم لله

(١) الشناوي ، نفس المرجع ، ص ٦١٦ - ٦١٧ .

ورسوله من أجل نشر العقيدة المحمدية ، يحاربون ، ولا يهابون الموت ،
ولذلك أهمل الصليبيون حمل الآلات الحربية للحصار والتي كانت تستخدم
آنذاك بحيث لم يكن أمام الصليبيين إلا أن يحاصروا المدينة ، حتى يموت
سكانها المسلمون جوعا وتسلم لهم . وبدأ الضعف يدب بينهم ، وانتشر
الفساد بين المحاربين الصليبيين ، اذ قضوا أوقاتهم في المقامرة ، وشرب
الخمر ، وارتكاب الجرائم ، والردائل رغم نصائح رجال الدين المسيحي لهم (١)
واعتقد الصليبيون أيضا أن بايزيد لن يستطيع عبور البسفور هو وجنوده ،
هذا في الوقت الذي كان فيه السلطان بايزيد الأول يعبر البسفور بسرعة
كبيرة ، وتكتم عظيم ، ويتقدم بقواته المنظمة ، الى أن أصبح على بعد
سته فراسخ منهم . (٢)

بلغ من غرور الصليبيين ان كان الكونت نيفارا وفرسانه الفرنسيين في مجلس
الحرب في ٢٤ سبتمبر سنة ١٣٩٦ م / سنة ٧٩٩ هـ حينما وصل اليهم الرسل
محلين أن بعض أفراد جنود الاستطلاع رأوا جيشا عثمانيا كبيرا على مقربة
منهم . وقطع الفرنسيون آذان الرسل ونظروا اليهم على أنهم يحملون لمصلحة
العثمانيين . (٣) ولما تأكدت الحقيقة للصليبيين ، أقدموا على ذبح ألف

(1) Creasy: op. cit., p. 37 ; Atiya: op. cit, p. 445.

(٢) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ج ٣ ، ص ٢٨ ، عزيز سوريال عطية ، العلاقات
بين الشرق والغرب ص ٩٦ .

(٣) المازني ، تاريخ الدولة العلية ، ص ١٥ ؛ Atiya: op. cit., pp. 445 - 446.

أسير عثمانى ، كانوا قد وقعوا في أيديهم في أثناء زحفهم من بودا (BUDA)
عاصمة المجر الى مدينة نيقوموليس . (١)

وكان الخلاف في مجلس الحرب الصليبي على أشده في ٢٤ سبتمبر سنة ١٣٩٦ م / سنة ٧٩٩ هـ ، حيث ظهرت الخلافات في الرأي الصليبي بينهم بشكل خطير . وكان هذا الخلاف سببا من أسباب الكارثة التي حلت بهم في النهاية . واقترح سجنسند الملك المجرى — الذي كان على علم تام بالتكتيكات العثمانية في حروبهم — أن يكون خط الهجوم الأول في الجيش الصليبي من الفرسان الولاشين ، وذلك ضد مقدمة القوات العثمانية ، وأن يشكل فرسان المجر خط الهجوم الثاني ، أما الفرسان الفرنسيون ، فاقترح أن يكون وضعهم في خط الهجوم الثالث ، بحيث يشكلون قلب الجيش الصليبي ، ليقابلوا خيرة القوات العثمانية المسلحة ، ثم تقف في مؤخرة الجيش باقى القوات المجرية ، والألمان ، والبشناق ، وسائر الفرق الصليبية . ومنع أن القادة الكبار رأوا الأخذ بنصيحة سجنسند إلا أن الكونت نيفارا القائد الفرنسى ، وبعض القادة الشبان عارضوا ذلك تدفعهم روح التعصب الصليبي الأعى ، وروح التحدى والرغبة في الحصول على شرف الانتصار ، مؤكدين أن الفرسان الفرنسيين لن يجعلوا المجرين في حاجة الى دخول المعركة .

(١) الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦١٢ .

وقول ذلك باستحسان كبير من النبلاء الفرنسيين ،^(١) وضع السلطان بايزيد الأول قوته الرئيسية في سهل على مقربة من المعسكر الصليبي حيث كان هناك مرتفع من الأرض في الوسط ، حجب الأتراك العثمانيين عن أعين أعدائهم الصليبيين . وأرسل السلطان بايزيد قواته غير النظامية الى الأمام معضدين بقوة من الانكشارية ويقسم كبير من الفرسان ، واستبقى أربعين ألفاً من خيرة قواته في هذا السهل .^(٢)

أما في الجانب الآخر فان الفرسان الفرنسيين البالغ عددهم ستة آلاف من الفرسان الأقوياء ، فانهم هجموا باندفاع كبير ، غير منتظرين معارضة من القوة الرئيسية المجرية ، والتي كان يقودها الملك سجنند بنفسه ، والتي كانت تتقدم ببطء شديد في ذلك الوقت . واخترق الفرنسيون قوات الأتراك الغير نظامية بكل سهولة ، ثم هاجموا قسماً من الانكشارية المتقدمة فتخلخلت صفوفهم . ووصل الفرنسيون الى قوات الأتراك النظامية ، الذين كانوا يحاولون تغطية انسحاب اخوانهم . وفر هذا النجاح في بداية الموقف بالفرنسيين ، وقام النبلاء الفرنسيون وعلى رأسهم الكونت نيفارا بتتبع السباهي المسلمين حتى وصلوا الى الأرض المرتفعة ، وهم في حالة من الاعياء الشديد ، محققين أن ذلك هو نهاية يوم عظيم . ولكنهم وجدوا

(١) عزيز سوريال ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٩٦ .

(٢) عزيز سوريال ، نفس المرجع ، ص ٩٧ .
Creasy:op. cit,p. 37.

أنفسهم — ليس أمام الأتراك العثمانيين المهزيمين كما توقعوا بل — أمام غلبة قوية من الرماح الإسلامية • فقد كان السلطان بايزيد بنفسه على رأس قواته المحاربة ، والذين بدأوا في التقدم وأطاحوا بالفرنسيين من كل جانب • أما القوات العثمانية والتي ظننها الفرنسيون أنها قد انهزمت ، فقد عادوا الى الجيش الرئيسى ، وأصبحت في نفس الوقت خلف الفرنسيين قاطعة عليهم كل أمل في التراجع أو الهرب • وفزع الفرنسيون وأدركوا أن ذلك لم يكن الا بداية النهاية ، اذ رأوا خلف الأفق فرسان بايزيد الأول وقواته الموالية من جنود الصرب تحت قيادة ستيفان لازار فيتش (١) (Stephane Lazarevitch)

وقاتل الفرنسيون ، ولكن انتهى بهم الأمر بأن أصبحوا قتلى أو أسرى في جيوش المسلمين • ولم ينج منهم الا النزر القليل • (٢)

وبعد الانتهاء من الفرنسيين أعاد السلطان بايزيد الأول تنظيم قواته • وتقدم مباشرة الى حيث ملك المجر سيجسمند ، وفي الحال هوب الجناحان

(١) عزيز سوريال ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٩٢ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦١٨ ، كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٢٢ •

(٢) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ج ٣ ، ص ٢٧ — ٢٨ ، عزيز سوريال ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٩٦ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦١٨ •

الرئيسيان للجيش المسيحي الصليبي المتحالف لهول ما شاهدوه من المسلمين الشجعان ، وذلك بدون أية محاولة منهم للاشتراك في المعركة . أما الوسط الذي كان يقوده الملك سجنند نفسه ، والذي كان يتكون من البافاريين والمجريين ، فلم تسعفهم الفرصة للهرب ، ووقفوا رغم ارادتهم أمام التقدم التركي المنظم . واستطاعوا إجبار الانكشارية على التراجع في أول الأمر ، ولكنهم فوجئوا بهجمات القوات المصرية بقيادة الملك ستيفان والذين حاربوا كحلفاء لبازيد في هذه المعركة . (١)

وانتهى الأمر أخيراً بهزيمة تامة للجيش الصليبي ، ودمرت قوات سجنند المجرية وقتل كثيرون من النبلاء البافاريين وغيرهم وذلك في يوم صليبيقة نيقوموليس سنة ٧٩٩ هـ / ٢٥ من سبتمبر سنة ١٣٩٦ م . ولا شك أن هذه المعركة قد وطدت مركز العثمانيين في البلقان بصورة لم يكن أحد من الصليبيين يتوقع حدوثها ، في أوروبا كلها ، أو العالم أجمع ، في ذلك الوقت في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي . (٢)

(1) Vasiliv: op. cit., p. 629; Creasy: op. cit., p. 39.

(٢) شاكرا الحنبلي ، التاريخ العثماني ، ص ٢٥ ، فيشر ، تاريخ أوروبا
الحصور الوسطى ، ق ٢ ، ص ٤٥١ ، سوريال ، العلاقات ، ص ٩٧
و ١٣٤ ، المازني ، تاريخ الدولة العلية ، ص ١٥ ، يوسف
أصاف ، تاريخ سلاطين آل عثمان ص ٣٣ ، كمال الدسوقي ، الدولة
العثمانية ، ص ٢٦ / ٢٧ ، Charles Diehl: op. cit., p. 163

وخرج العثمانيون المسلمون بفنائم كثيرة ، وعدد ضخم من الأسرى
وكان بين الأسرى كثير من مشاهير الفرسان النبلاء في أوروبا ، مما جعل
السلطان بايزيد الأول يحصل منهم على فدية كبيرة .

أما بقية الصليبيين فحاولوا الهرب عن طريق السهول الغربية ، ولكن
قطع عليهم الأتراك العثمانيون محاولتهم هذه في الهرب ، وحاول الآخرون
السباحة في النهر ، ولكنهم غرقوا لثقل ما يحملونه من دروع وأسلحة ، ووقع
بقية الصليبيين في الأسر . (١)

وهنا تجدر الإشارة الى أسباب هذا النصر الكبير الذى أحرزه السلطان
بايزيد الأول وجيشه العثماني المسلم الذى كان لا يهاب الموت ، ويحرص
على الشهادة في سبيل الله . وأهم هذه الأسباب هى الطبيعة الفير
المتجانسة للجيش الصليبي ، والأهداف المتعارضة ، والآمال المتعددة
بينهم ، والتي كان لها كبير الأثر فى هذه الهزيمة الشنء التى منوا بها .
والى جانب هذا كان الجانب العثماني فى هذه الحرب تربطه وحدة الهدف ،
والتنظيم الكبير الذى أعطى صورة مخالفة تماما للصليبيين . (٢)

وساعد نظام التيمار على تحقيق هذا النصر ، ففى هذا النظام كانت

(1) Creasy: op. cit., p. 39 ; Shaw: History of the Ottoman Empire, Vol. I., pp. 33-34.

(2) Atiya: op. cit., p. 447.

الاقطاعات تمنح في مقابل الخدمة العسكرية حسب رغبة السلطان ، وليست مقابل خدمة عسكرية معلومة في عدد من الأيام المحدودة ، كما هو الحال في الغرب . وكان الحاصلون على هذه الاقطاعات يدينون بالولاء للسلطان وحده . وكان عليهم أن يمدوا جيش السلطان بفارس معد بكامل أسلحته مقابل ٣٠٠ أسبرا (ASPERS)^(١) من دخلهم . وهذه الوسيلة كان في مقدور السلطان العثماني في القرن الثامن الهجري — الرابع عشر الميلادي — أن يجهز جيشا قوامه ٧٥ ألف رجل . وساعد على انتصار المصمحين الصفات الخلقية لأفراد الجيش العثماني حيث كان ممنوعا في المعسكرات العثمانية^(٢) الخمر ، والنساء ، والمقامرة ، واللبا . ما قضى الرجال أوقات فراغهم في الصلاة . وفوق هذا كله كانت الطاعة هي أعظم ما يتحلون به ، وإيمانهم العميق بأنهم انما يقاتلون من أجل الحق ، ولتحقيق قضية مقدسة ، هي الجهاد في الاسلام . والذي شجع الأتراك المسلمين أن لا يخشوا الموت السدى يمنحهم تاج الشهادة والفردوس الدائم . يضاف الى ذلك كله الصفات الخلقية الممتازة التي كان يتميز بها بايزيد الأول بصفته القائد الوحيد للجيش العثماني ، فقد كانت على النقيض تماما بالنسبة للصفات التي كان يتمتع بها سجنده والتي كانت تتمثل أساسا في ضعف شخصيته فضلا عن الفرور العنيد والمكابرة التي تميز بها أصحابه من الفرنسيين^(٣) .

(١) أسبرا (ASPERS) عملة نقدية .

(2) The Cam. Hist. of Islam, Vol. I., p. 273.; Atiya : op. cit., pp. 447-448.

(3) Inalcik: op. cit., p. 16 ; Atiya: op. cit., p. 449.

ويصف المؤرخ العربى المعاصر ابن حجر العسقلانى السلطان بايزيد
الأول بقوله " (كان أعظم ملوك العالم) " ويستطرد قائلا " كان مرهوب الجأ^{نب}
يحب العلم والعلماء ويقدر كل من كان له المام كبير بملوم القرآن " . (١)

وكانت أساليب الأوربيين فى الحرب أقل كفاءة من أساليب الأتراك
العثمانيين ، حيث كانت التكتيكات التى تعتمد على الفرسان المدججين
بالحديد قد فقدت تأثيرها المميت أمام خفة حركة الأتراك فى اختراق
صفوف المسيحيين ، وفى استخدام السهام (٢) .

بعد هذا الانتصار الرائع الذى أحوزه السلطان بايزيد الأول على التحالف
الصليبي فى معركة نيوموليس سنة ٧٩٩ هـ / سنة ١٣٩٦ م ضيق السلطان
العثمانى الخناق على الدولة البيزنطية . فلقد أدى هذا الانتصار العثماني
على هذا التكتل الدولى الصليبي الواسع النطاق الى توطيد أقدام العثمانيين
فى البلقان ، حيث انتشر الفزع بين الشعوب البلقانية وتوغل الجنود
العثمانيون متعقبين لفلول الصليبيين فى ارتدادهم . واقتصر السلطان
بايزيد من حكام شبه جزيرة المورة اللاتين الذين قدموا مساعدات عسكرية
للمسيحيين ، وبعد هذا لم يبق أحد من هذه الدولة الصليبية يستطع أن يعد

(١) ابن حجر ، أنباء النمر ، ج ٢ ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(2) Atiya: op. cit., p. 449.

المساعدة للدولة البيزنطية التي كانت هي الأخرى ترزخ تحت وابل الحسب الأهلية . وقد انتهز السلطان بايزيد الأول فرصة هذه الحرب الأهلية وأخضع في سنة ٨٠٠ هـ / سنة ١٣٩٧ م كلا من أبيروس وتساليا ثم تحول بعد ذلك محاولا الاستيلاء على القسطنطينية ليحقق للمسلمين هذا الحلم في سقوطها . ومن ثم تحرك على رأس قواته ، وضرب نطاقا محكما من الحصار حول العاصمة وأخذ يضغط عليها ضغطا لا هوادة فيه . وبينما كانت أورها تتوقع سقوط القسطنطينية بين لحظة وأخرى ، فإذا بالسلطان العثماني بايزيد الأول ينصرف عن فتح القسطنطينية بعد أن قبل الإمبراطور البيزنطي بشروط السلطان بايزيد الأول ، وهي دفع عشرة آلاف قطعة ذهبية كل سنة والتخلي عن أحد أحياء القسطنطينية ليكون مسكنا للمسلمين ، وأن يبنوا بها مسجدا جامعيا لاقامة شعائر الدين الخفيف ، وتعيين قاضي شرعي للفصل في دعاوى المسلمين . (١) وكان من أسباب رفع الحصار عن القسطنطينية أيضا هو تصميم السلطان على دفع الخطر المغولي ، وعلى رأسه تيمورلنك الذي جاء بجيش جرار لمهاجمة الدولة العثمانية . (٢)

وكانت الدولة العثمانية وعلى رأسها السلطان بايزيد الأول تستشعر هذا

(١) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٠ ، شكيب أرسلان ، حاضرم العالم الإسلامي ، ص ٢١٨ .

(٢) زيني دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، ص ٧٣ .

Inalcik: op. cit., p. 16.

الخطر المفولى الذى يتهددها من الشرق ، وحال دون استمرار حصار القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وأدرك السلطان منذ توليه الحكم أنه لابد من منازلة هذا الغازى المفولى ، ومن أجل هذا اتجهت همته منذ البداية الى تقوية مركزه فى آسيا الصغرى ، فانتزع قونية من أمير قرمان سنة ٧٩٤ هـ / سنة ١٣٩١ م ، وأدخل تركمان قيصارية ، وسيواس فى طاعته . وفى سنة ٧٩٦ هـ / سنة ١٣٩٣ م سلم أمير قسطنونى ممتلكاته أيضا للعثمانيين . ولجأ الى تيمورلنك من نجا من القتل والأسر من أمراء الأناضول ، وكانوا جميعا يحرضون تيمورلنك على دخول بلاد الترك العثمانيين^(١)

وكان المسيحيون أيضا يحرضون تيمورلنك ، كما اتصل الامبراطور البيزنطى هنا السابع بتيمورلنك أيضا ، وكان البيزنطيون فى القسطنطينية قد وعدوا تيمورلنك أنه اذا انتصر على السلطان بايزيد الأول العثمانى أن يدفعوا له الجزية التى يتقاضاها السلطان بايزيد الأول منهم . وكان ملك فرنسا شارل السادس يشجع هذا التدخل لصالح صديقه امبراطور بيزنطة . وأرسل السلطان بايزيد الأول ابنه أرطغرل الى آسيا الصغرى ليصد هجمات تيمورلنك ، ولكن تيمورلنك استطاع أخذ أرطغرل أسيرا لديه وقطع رأسه .

(١) البكرى ، المنح الرحمانية ، ورقة ٣ ، ١٦٠ . Inalcik: op. cit., p. 160.

(٢) محمد فريد ، الدولة الحلية ، ص ٥١ ، سالم الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ٣٣ — ٣٤ .

ومعد أن تبادل تيمورلنك والسلطان بايزيد الأول بعض الرسائل ،
دخل تيمورلنك في أراضى الدولة العثمانية . (١) وجمع السلطان بايزيد جيوشه
وسار لمحاربة تيمور ولكنه تعجل في هذا الأمر ، فجمع جيشا صغيرا جدا
بالنسبة لجيش خصمه تيمورلنك ، الذى بلغ جيشه ثمانمائة ألف مقاتل . (٢)

وتقابل الجيشان في سهل أنقره في ١٩ من ذى الحجة سنة ٨٠٤ هـ /
٢٠ من يولية سنة ١٤٠٢ م . واستمرت الحرب يوما كاملا ، وأظهر بايزيد
الأول شجاعة نادرة ، ولكن جيشه ضعف ، وذلك نتيجة لفرار الجنود التتار
الذين كانوا في جيش السلطان بايزيد الأول ، وكذلك انفض عنه في أثناء
المعركة أتراك آيدين ، وضتشاء وصاروخان ، وكرمان بعد أن رأوا أمراءهم
يحاربون في صفوف تيمورلنك . ولم يبق مع السلطان بايزيد الأول إلا خمسة
أو عشرة آلاف انكشارى ، وهاكر الصرب حيث ثبتوا ثباتا باسلا حتى المساء .
ولم يستطع السلطان بايزيد الأول الصمود في وجه التتار رغم شجاعته واستماتته
هو ومن بقى معه من الجند ، حتى يقال انهم عجزوا عن القبض عليه لشجاعته ،

-
- (١) أنظر ابن عرب شاه ، كتاب تيمور ، مخطوط ، ورقة ٥٨ ، ابن حجر ، أبناء
الشمس ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .
(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢ ، ابن تفرى بردى
النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢١٦ ، ابن حجر العسقلانى ، أبناء
الشمس ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .
(٣) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥١ ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب ،
ج ٣ ، ص ٣١ .

وقوته ، فرموا عليه بساطا وأمسكوه • وأخذوه هو وابنه موسى أسيرين •
وهوب باقى أبناء بايزيد الأول • (١)

وقبض تيمورلنك على السلطان بايزيد الأول ، وأحسن معاملته فى بادئ
الأمر ، لكنه شدد عليه الأسر بعد أن قام السلطان بايزيد الأول بمحاولتين
للهرب ، ولكن السلطان بايزيد الأول توفى فى الأسر فى أول المحرم سنة
٨٠٥ هـ / ٨ من مارس سنة ١٤٠٣ • وعندما سمع تيمورلنك بذلك حزن
حزنا شديدا عليه ، فقد كان بايزيد الأول من أكبر ملوك الاسلام ، وأكثرهم
غزوا فى بلاد الكفار ، وكان ينكر على ملوك عصره تقاعدهم عن الجهاد فى سبيل
الله ، وسمح تيمورلنك بدفنه فى جامع بروسا • (٢)

وأعاد تيمورلنك كثيرا من الامارات الآسيوية الى أصحابها من الأمراء
السابقين الذين دانوا له بالطاعة ، كذلك استعادت الدولة البيزنطية
كثيرا من أملاكها السابقة • واستعادت أيضا الدول الأخرى المغلوبة ،

(١) البكرى ، المنح ، ورقة ٤ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، تحقيق محمد مصطفى
ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٠ ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ج ٣ ، ص ٣١ ،
محمد فريد ، الدولة الحلية ، ص ٥١ .
(٢) البكرى ، المنح ، ورقة ٤ ، ابن حجر ، أبناء الفخر ، ج ٢ ، ص ٢٢٥
— ٢٢٦ ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ج ٣ ، ص ٣١ ، فيشر ، تاريخ أوروبا
الحصور الوسطى ، ق ٢ ، ص ٤٥ .

(١)
كالصرب ، والبُلغار ، والمورة ، سيادتها واستقلالها .

وقد أجلت هذه المهزيمة من سقوط القسطنطينية لمدة خمسين عاما أخرى بعد أن أوشكت على السقوط في أيدي العثمانيين . وكادت هذه المهزيمة أن تقضى على الدولة العثمانية لولا أن هلك تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ / سنة ١٤٠٥ م ، وقسم أبنائه مملكته ووقعت الخلافات بينهم ، مما أضعف سلطانهم في آسيا الصغرى وفي أكثر ممالكهم . وتخلص العثمانيون من سلطة المغول ولكنهم عندما تخلصوا من القوة الخارجية ظهر بأسهم بينهم ، فكثر الخلاف الداخلي على السلطة بين أبناء السلطان بايزيد الأول ، مما نتج عنه اشتعال الحرب الأهلية داخل السلطنة العثمانية . (٢)

ودام النزاع بين أبناء السلطان بايزيد الأول ما يقرب من اثني عشر عاما . انتهت باعتلاء السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد الأول العرش ، الذي يسمى بمحمد جلبي ويعتبر المؤسس الثاني للدولة العثمانية ، وكان أشد أخوته بأسا ، وأوفرهم نشاطا وحيوية . (٣)

(١) ابن حجر ، أبناء النضر ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، أومان ، الإمبراطورية البيزنطية

ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٦٤٢

(٢) فيشر ، تاريخ أوروبا ، ق ٢ ، ص ٤٥٢ ، Ostrogorsky: op. cit.,

p. 495 ; Shaw: History of the Ottoman Empire. Vol. I., pp. 37 - 38.

(3) Shaw: op. cit., pp. 38 - 39 - 41.

وعمل السلطان محمد الأول على تنظيم دولته بحيث مهد الطريق أمام من جاء بعده من السلاطين العثمانيين لتكملة عملية الفتح الاسلامية مرة أخرى في أوروبا . (١) وواصل السلطان محمد الأول جهوده الكبرى لاتمام دار بناء السفن في غاليلوى ، بحيث يستطيع مواجهة أعداء الدولة العثمانية بحوا اذا لزم الأمر . واستطاع بذلك استعادة القوة الى الدولة العثمانية ، وتوحيد أملاك أبيه ، عندئذ لم يسع الامبراطور البيزنطى وفيه من الأوربيين سوى تقديم فروض الولاء الى السلطان مرة أخرى . (٢) الا أن النية أدركت السلطان محمد الأول فى سنة ٨٢٤ هـ / سنة ١٤٢١م فأسلم الروح فى مدينة أدرنه بعد أن أوصى للحكم لابنه مراد الثانى . (٣) وكان على السلطان مراد الثانى أن يستأنف حركة الجهاد الاسلامى ضد البيزنطيين وهو موضوع الفصل الثالث .

.. ..

(١) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٤ ، أومان ، الامبراطورية البيزنطية ،

ص ٢٥٦ ، سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ج ١ ، ص ٦٤٢ .

(٢) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٤ ، أومان ، نفس المرجع ، ص ٢٥٦ .

(٣) البكرى ، المنح الرحمانية ، ورقه ٤ ، Ostrogorsky: op. cit., p. 495.

الفصل الثالث

جهاد السلطان مراد الثاني ضد البيزنطيين

- حصار العثمانيين للقسطنطينية ١٤٦٦ هـ / ١٤٩٢ م ونتائجه.
- استعانة الإمبراطور حنا الثامن بالقوى الأوربية ضد العثمانيين .
- هزيمة حملة صليبية أوربية في موقعة واردة (قارنة) ١٤٤٨ هـ / ١٤٤٤ م .

كانت الكارثة التي حلت بالدولة العثمانية في وقعة أنقرة محنة قاسية ، فقد أدت موقعة أنقرة التي وقعت بين السلطان بايزيد الأول ، وبين تيمورلنك في ١٩ من ذي الحجة سنة ٨٠٤ هـ الموافق ٢٠ من يولية سنة ١٤٠٢ م الى اضطرابات داخلية في الدولة العثمانية ، تمثلت في الخلافات الدائمة التي وقعت بين أبناء بايزيد الأول ، واستمرت هذه القلاقل وتلك الصراعات مدة تقرب من اثني عشرة سنة ، لم تنته الا في عام سنة ٨١٦ هـ / سنة ١٤١٣ م عندما قضى السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد الأول على تلك الخلافات ، وأعاد الأمن والاستقرار ، والمهدوء الى البلاد . (١)

وكان السلطان محمد الأول على نفس مستوى والده السلطان بايزيد الأول ، جم النشاط على المهمة ، استعمل حكمه باسترداد الامارات العثمانية التي استغلت فرصة الغزو المغولي ، وخرجت عن طاعة الدولة العثمانية ، وهذه الامارات هي امارة آيدين ، (٢) وصاروخان ، ومنشأ Menteche

(١) أنظر ما سبق الفصل الثاني .

(٢) " آيدين " واسمها القديم ترالس Tralles مدينة في آسيا الصغرى على نهر ديباج (طباق جاق) (قديما ايدون Eudon) وهو أحد نهيرات نهر مندريس Meandres . دائرة المعارف الإسلامية مادة آيدين .

(١) المطلة على بحرايجه ، وأضاليا Adalia التي كانت آخر مدينته
في إمارة تكا Tekka ، تطل على البحر المتوسط ، وكان السلطان بايزيد
الأول قد فتحها سنة ٧٩٤ هـ / سنة ١٣٩١ م . (٢)

واستنفذ هذا الأمر من السلطان محمد الأول جهودا كبيرة ، حتى
استطاع إعادة السيطرة العثمانية على تلك البلاد مرة أخرى . وما هي
الاسلامى فى الضغط على جيران الدولة العثمانية حول تخومها الغربية ، وأن
يواصل الافارات على الأراضى المجرية . وكان المأمول أن يحقق هذا السلطان
الحازم للدولة العثمانية أمجادا عظيمة ، بعد أن حقق هذه البداية الطيبة
فى احياء بحركة الجهاد الاسلامى ضد القوى الصليبية ، لكن الموت لم يسبله
حتى يكمل خطته ، ومشروعاته حيث توفى فى مدينة أدرنه عام ٨٢٤ هـ /
سنة ١٤٢١ م . (٣)

-
- (١) أضاليا : ستاليا بالانجليزية (Stalia) وأداليا عند الأقدمين ، عاصمة
سنجق فى ولاية قونية ، وهى إحدى موانى البحر المتوسط على خليج
يسمى باسمها . وتقوم على صخرة منحدره ترتفع عن سطح البحر بخمسين مترا
وشكل تلك المدينة شبيهة بحدوة الفرس ، ويحيط بها ثلاثة أسوار بعضها
وراء بعض ، وتسمى قواعدها مياه دودن (Duden) ويترجم هذا
السور الى العهد الرومانى ، (دائرة المعارف الإسلامية مادة أضاليا ص ٦٩)
(٢) الشناوى ، أوربا فى مطلع الحصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٦١٠ .
(٣) الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٢٢ . Fisher: op. cit., p. 182 .

خلف محمد الأول ابنه السلطان مراد الثانى الذى حمل من بعد أبيه مسئولية استرجاع البلاد التى كانت خاضعة للدولة العثمانية ، والبقي كانت قد فقدتها الدولة العثمانية بعد غزوة تيمورلنك . فكانت أولى أعماله إبرام الصلح مع أمير قرمان ، والاتفاق مع ملك المجر سيجسموند على هدنة لمدة خمس سنوات ، حتى يتفرغ لارجاع ما شق عصا الطاعة من ولايات آسيا . ولكن حدث ما شغل السلطان مراد عن القيام بمثل هذا العمل ، وذلك أن الدولة البيزنطية حاولت أن تتحرر من الخضوع للدولة العثمانية ، فقد كانت بيزنطة تدفع اتاوة سنوية الى العثمانيين منذ سنة ٧٩٦ هـ / سنة ١٣٩٦ م عقب هزيمة الصليبيين فى معركة نيقوبوليس . وكانت هذه الاتاوة تدفعها أيضا كل من بلاد الصرب ، والبوسنة ، والافلاج . (١) وتجلت هذه المحاولة البيزنطية فيما طلبه الامبراطور البيزنطى مانويل باليولوفوس من السلطان مراد الثانى . وهو أن يتعهد له بعدم محاربته مطلقا ، وأن يسلمه اثنين من اخوته ليكونا رهائن فى بيزنطة ضمانا لعدم نقضه والتزامه بهذا الشرط .

وهدد الامبراطور البيزنطى مانويل السلطان مراد الثانى فى حاله رفض طلبه أن يطلق سراح عمه مصطفى ابن السلطان بايزيد الأول ، والسدى كان أسيرا فى سالونيك . وكان الغرض من هذا التهديد هو إثارة السلطان

(١) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج ١ ، ص ٥٠٠ .

(2) Creasy: op. cit., p. 62.

المتاعب في وجه السلطان مراد الثاني ، واثارة القلاقل والفتن وانشغاله بهما بعيدا عن الدولة البيزنطية . وكان من الطبيعي أن يرفض السلطان مراد الثاني الاذعان لهذه المطالب .

وحين وصل الى مانويل باليولفوس رفض السلطان مراد الثاني لكل شروطه ، أطلق سراح الأمير مصطفى ، عم السلطان مراد الثاني ، وزوجه بعشرة مراكب حربية تحت أمرة دميتريوس لاسكاريوس فأتى بها وحاصروا مدينة غاليبولى فسلمت له ما اعدا قلعتهما التي حاول انتزاعها ولكنه فشل . وفرض الأمير مصطفى على قلعة غاليبولى حصارا شديدا وذلك لمنع أية امدادات تأتى اليها من جانب السلطان مراد الثاني . ثم اتجه الأمير مصطفى بعد ذلك الى مدينة أدرنه في محاولة للاستيلاء عليها ، وذلك بعد أن استطاع أن يستميل اليه أعدادا كبيرة من الجنود العثمانيين . وقد تمكن الأمير مصطفى من اثاره الفتنة بهذه الجموع الخفيرة ، إلا أن الوزير بايزيد باشا خرج لمحاربتة ، فتقدم اليه مصطفى بجيوشه واستطاع قتل بايزيد باشا . ثم زحف الأمير مصطفى بعد ذلك بقواته عبر الدردنيل الى آسيا بجيش كبير ، وفي ذلك الوقت تحرك السلطان مراد الثاني لمواجهة عمه ، وأظهر براعة ، ومقدرة حربية ممتازة ، وهزم الأمير مصطفى في القتال ، وانضم كثير من قوات الأمير مصطفى الى جيش السلطان العثماني مراد الثاني ، وفر الأمير مصطفى الى مدينة غاليبولى ، فسلمه بعض أتباعه الى ابن أخيه مراد الثاني ،

(١)
فأمر بشنقه سنة ٨٢٦ هـ / سنة ١٤٢٢ م .

وحين فرغ السلطان مراد الثاني من فتنة عمه الأمير مصطفى اتجه إلى الانتقام من الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني بالبولوغوس جزاء ما أثاره من مشكلات وفتن . رأى السلطان مراد الثاني بثاقب نظره أن الفرصة الموحجة يجب أن تكون بالاستيلاء على القسطنطينية معقل المسيحية ، وهدف المسلمين الأوائل منذ الفتح الإسلامي ، طمعاً في بشري الرسول عليه الصلاة والسلام " لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنحسم الجيش ذلك الجيش " . (٢)

من هذا المنطلق أراد السلطان مراد الثاني أن يفوز بالشهادة ، ومشى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في هذا الجهاد العظيم بفتح تلك المدينة ، التي استعصت على من خلفوه من المسلمين الأوائل ، فأخذ أهله لذلك ، وبدأ في حصارها في سنة ٨٢٦ هـ / أوائل يونية سنة ١٤٢٢ م . (٣) ولمّا أحس الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني بنوايا السلطان مراد الثاني ، حاول استرضاءه ، فأرسل إليه عدة سفارات تحمل إليه الأعذار ، وتحاول إخماد

(١) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج ١ ، ص ٥٠٠ ، محمد فريد ، الدولة العلية ص ٥٤ - ٥٥ ، Inalcik: op. cit., 19; Creasy: op. cit., p. 60.
(٢) أنظر أحاديث فتح القسطنطينية في صحيح مسلم ج ٨ ص ١٧٦-١٧٧ .
(٣) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج ١ ، ص ٥٠٠ ، الشناوي ، نفس المرجع ج ١ ، ص ٦٢٤ ، Creasy: op. cit., p. 60

الأمر إلى ما كانت عليه . ولكن السلطان مراد الثاني كان قد عقد العزم على الجهاد في سبيل الله ، ورفض الاستجابة لهذه السفارات أو قبول هذه الاعتذارات . وفي يوم ٣ من رمضان سنة ٨٢٦ هـ / ٢٤ من أغسطس سنة ١٤٢٢ م كان السلطان مراد الثاني يقف على أبواب القسطنطينية ومعه عَشْرُونَ ألفاً من أحسن الجنود الذين انتقاهم لهذه المعركة الهامة . (١)

وكانت خطة السلطان مراد الثاني أن يجمع بين حصار القسطنطينية ، وضرب القوات البيزنطية فيما حولها . لهذا أفرد السلطان مراد من جنده عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة القائد العثماني ميخائيل بك ووجههم للانغارة على أراضي الامبراطورية البيزنطية خارج أسوار القسطنطينية . أما بقية الجيش المسلم فقاده السلطان مراد الثاني بنفسه ، وخصه لحصار القسطنطينية . وقد أحكم السلطان مراد الثاني الحصار على القسطنطينية بمهارة فائقة ، وعبقريّة خارقة ، كانت تدر في الحملات الحربية المعاصرة . وأقام السلطان مراد الثاني خطاً للتحصينات على مدى سبعين من أسوار المدينة . وكانت هذه التحصينات تتمثل في سور ممتد من البحر حتى القرن الذهبي ، ليتمكن السلطان مراد الثاني من السيطرة على تلك الأراضي التي حول المدينة ، وحصارها . وأقيم هذا الخط من سد ترايب مدعم بأخشاب قوية ،

(١) شاكر الخبلى ، التاريخ العثماني ، ص ٣٢ ، Hidden: op. cit., p. 45.

(2) Creasy: op. cit., p. 60. ; Hidden: op. cit., p. 45.

ومدرج بصخور قوية لا تؤثر فيها النيران الإغريقية . وفى حماية هذا الخط الاستراتيجى كان جيش السلطان مراد الثانى يستعد للهجوم ، متربيا اللحظة المناسبة . وأعد السلطان لقواته أبراجا متحركة لتحمل القوات الى أسوار المدينة ، ولتقل البارود الى المواقع الأمامية . ولأول مرة فى التاريخ استعملت المدافع من جانب العثمانيين المجاهدين فى هذه المعركة . (١)

وقد ذكر بعض الباحثين أن السلطان مراد الثانى أراد إثارة حماس جنوده المسلمين المجاهدين ، وحث روح الجهاد والنصرة الدينية بينهم ، فأعلن أن لكل مجاهد من المجاهدين المشتركين فى عملية الحصار ، والذين سوف تفتح المدينة على أيديهم ، سوف يكون له نصيب من الكنوز الموجودة بالمدينة . غير أنه يجب الإشارة هنا الى أن هناك من الدوافع الدينية والرغبة المتمكنة فى قلوب الجند العثمانيين لفتح القسطنطينية معقل المسيحية ما طغى على كل دافع أو رغبة أخرى .

وبلغ الحماس الدينى ذروته حيث انضم الى الجيش العثمانى خمسمائة من الشباب المتدين تدبنا عميقا ، والمتفقه فى علوم الدين ، وكان على رأس هؤلاء شيخ يدعى بالشيخ البخارى ، وهو عم السلطان العثمانى مراد الثانى ،

(1) Ostrogorsky: op. cit., p. 497 ; Creasy: op. cit., p. 61.

الذى أخذ بدوره هو وجماعته ييث روح الجهاد بين صفوف الجند العثمانيين ، وأعلنت هذه الجماعة المنضمة الى الجيش العثماني وعلى رأسهم الشيخ البخارى أنهم سيقودون المسلمين لفتح القسطنطينية . وفى يوم ٤ من رمضان سنة ٨٢٦ هـ / ٢٥ من أغسطس سنة ١٤٢٢ م تقدم الجيش العثماني بقيادة السلطان مراد الثانى تجاه القسطنطينية . وكان الجنود يبتزخون الموت ، ويطلبون النصر ، ويستعجلون الشهادة فى سبيل الله . وبدأ الهجوم عنيفا ، وقابله الجنود البيزنطيون باستماتة واستبسال ، وقاموا على أسوار المدينة يدافعون عنها . وكان القتال عنيفا على أشده قرب بوابة سانت رومانوس St. Romanus حيث استبسل الفريقان . (١)

حاصر العثمانيون القسطنطينية بضعة شهور ولكن فى أوائل سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م أمر السلطان مراد الثانى برفع الحصار عن المدينة ، ولم تكن للأسباب التى ذكرها بعض الباحثين ، بسبب نقص المدفعية ، ونقص قواته البحرية ، وإنما السبب الرئيسى لفك الحصار هو ما بلغ السلطان من قيام فتنة ضده بجهات الأناضول بتحرير من أخيه مصطفى جلبي الذى شق عليه عصا الطاعة ، وكان الأمير مصطفى قد استعان على أخيه السلطان مراد الثانى

(١) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٥

Hidden: op. cit., p. 45. ; Creasy: op. cit., p. 61.

(٢) أنظر : سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٣٧ .

ببعض أمراء آسيا الصغرى الذين كان تيمورلنك قد رد اليهم أقاليمهم التى انتزعها العثمانيون منهم ، وتوجه السلطان مراد الثانى سريعا لاختاد هذه الفتنة . وتمكن من ذلك بعد أن قبض على الأمير مصطفى وقتله فى سنة ٨٢٧ هـ / سنة ١٤٢٣ م . (١) ووقع الرغب فى قلوب من ساعده من الأمراء ، وتنازل أمير قسطنطين عن نصف أملاكه للسلطان مراد الثانى ، وزوجه ابنته اظمهارة لاختاصه ، وولائه للسلطان .

وكان من نتيجة حصار السلطان مراد الثانى للقسطنطينية ، أن وافق الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى باليولوجس من جديد على دفع الاتساة السنوية التى كان قد فرضها من قبل السلطان بايزيد الأول على أبيه ، وتقدرها بعض المصادر بمبلغ ثلاثين ألفا من الدوكات ، والبعض الآخر يقدرها بخمسين ألفا من الدوكات . (٢) ووافق الإمبراطور البيزنطى أيضا على تسليم الممدن الواقعة على البحر الأسود الى السلطان العثمانى مراد الثانى ، وأن يتنازل عن جميع ممتلكاته ماعدا مدن القسطنطينية ، وسالونيك ، ومنطقة البلومونيز .

(١) ابن حجر ، أنباء الفجر ، ج ٣ ، ص ١٣٣ ، أومان ، الإمبراطور البيزنطية ، ص ٢٥٨ .

(٢) أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٨ ، والدوكات : هى عملة ذهبية كانت تسكها مدينة البندقية من الذهب الخالص .

وفي السنة التالية ٨٢٨ هـ / سنة ١٤٢٤ م شق قوه جنيد حاكم غاليبولى
عصا الطاعة على السلطان العثمانى مراد الثانى واستولى على اماره آيدىن ،
لكن القائد العثمانى حمزه بك أخو الوزير العثمانى بايزيد باشا استطاع
هزيمته ، وقهره ، وقبض عليه وأمر بخنقه ، فتخلصت الدولة بذلك من
هذا الخائن سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤ م . (١)

كما أعاد السلطان مراد الثانى الى أملاك الدولة العثمانية ولايات
آيدىن ، ومنشأ ، وصاروخان ، وغيرها من الامارات التى شقت عصا الطاعة
عليه أثناء فتنة الأمير مصطفى . واسترد كذلك بلاد كرميان بعد أن قتل
أميرها محمد بك وعين ابنه ابراهيم واليا عليها مع منحه بعض الامتيازات بشرط
أن يتنازل عن اقليم الحميد . (٢) وفي عام ٨٣١ هـ / سنة ١٤٢٧ م فتححت
قلعة كوكسرينك على نهر الدانوب . (٣) وفي عام ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م توفى
أمير كرميان عن غير عقب ، وأوصى بما كان باقيا له من بلاده الى السلطان مراد

-
- (١) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ص ٥٠٠ ، محمد فريد ، الدولة العلية ،
ص ٥٥ .
(٢) سرهنك ، نفس المرجع ، ص ٥٠٠ ، محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٥ .
(٣) فريدون بك ، منشآت السلاطين ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ، ساطع الحصرى ،
البلاد العربية ، ص ٢٠ .

الثاني ، وذلك آلت اماره كرميان للسلطان مراد الثاني العثماني ، ويكون بذلك قد استرد السلطان مراد الثاني جميع ما فصله تيمورلنك عن السلطنة العثمانية ، (١)

وهذا استطاع السلطان مراد الثاني — بقضائه على تلك الفتن والحروب الأهلية — أن يتفخ لاسترداد ما فقدته الدولة في أوربا بعد موت السلطان بايزيد الأول ، فابتدأ السلطان مراد الثاني بمحاربة ملك المجر سجسمند الذي كان منبع اثاره للفتن في الدولة العثمانية ، ومعطلا لحركة الجهاد الاسلامي . وقامت محاربة شديدة ومعارك عنيفة بينه وبين السلطان مراد الثاني اتم فيها فتح كولمباتز Kolumbatz الواقعة على الشاطئ الأيمن لنهر الدانوب . وأرغم السلطان مراد الثاني ملك المجر على توقيع معاهدة ، تنازل بموجبها الى السلطان العثماني عن كل البلاد الواقعة على شاطئ نهر الدانوب الأيمن ، بحيث أصبح النهر حدا فاصلا بين أملاك الدولة العثمانية ، والمجر في سنة ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م . (٢)

وفي سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م أسرخ أمير الصرب جورج برنكوفيتش (Georges Brankovitch) الى استرضاء السلطان مراد الثاني ،

(١) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٥ ، Inalcik: op. cit., p.19.

(٢) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج ١ ، ص ٥٠٠ ، الشناوي ، أورنا في

مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٦٢٦ .

وتعهد بأن يدفع اتاوة الى الدولة العثمانية قدرها ٥٠٠٠٠ ألف ، خمسون ألفا من الدوكات الذهب . والترم بتقديم فرقة من جنوده لمساعدة السلطان مراد الثانى وقت الحرب ، وأن يزوج ابنته ماريا للسلطان مراد الثانى ، وأن يقطع الحلاقة القائمة بينه وبين ملك المجر ، وأن يتنازل للدولة العثمانية عن بلدة كروشيفاتش الواقعة فى وسط بلاد الصرب لتجعلها حصنا منيعا تأوى اليه جنودها ، منعا لحصول الفتن . (١)

وفى ٥ من رجب سنة ٨٣٤ هـ / ٢٠ من مارس سنة ١٤٣٠ م أعاد السلطان مراد الثانى فتح قلعة سالونيك (٢) اليونانية ، وكانت من أحصن القلاع اليونانية ، وكانت هى والقسطنطينية توأمان فى كونهما منبع الكفر ، والضلالة ، فى أيدى المسيحيين . وقد كانت سالونيك أشد من القسطنطينية وطأة فى اضرار المسلمين بآثارة الفتنة والفساد . وكان السلطان مراد قد تركها للامبراطور البيزنطى مانويل الثانى باليولوفوس طبقا للمعاهدة التى وقعت بعد

-
- (١) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ص ٥٠٠ وكروشيفاتش : تسمى فى كتب الترك (الاجه حصار) وتبعد ٥٦ كم عن مدينة نيش بالقرب من ملتقى نهر مورافا (محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٥) .
- (٢) سالونيك أو سالانيك : بلد من أعمال مقدونية فى طرف خليج سالانيك شرقى مصب نهر رودار ، عند سفح تل يشرف عليها من الشمال الشرقى ، وهى البلدة اليونانية القديمة التى شيد ها كاساندر (Cassander) على موقع ثرما (Therna) ، وقد أطلق على المدينة اسم زوجته أخت الاسكندر الأكبر . (دائرة المعارف الاسلامية ، مادة سالانيك) .

حصار القسطنطينية سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م ولكن الامبراطورية البيزنطية كانت قد تنازلت عنها للبنادقة الذين كانوا في ذلك الوقت على عداوة ضد السلطان مراد الثاني . (١) ولهذا وجد السلطان مراد الثاني نفسه في حل من استردادها وتم له ذلك بعد أن حاصرها خمسة عشر يوما . (٢)

اتجه السلطان مراد الثاني بعد فتحه سلاويك (سالونيك) لمواصلة حركة الجهاد الاسلامي رافعا رايته في أوروبا بادئا بالبانيا ، والمجر . وكانت البانيا تشمل المنطقة الجبلية الممتدة من الساحل الشرقي للبحر الادرياتيكي ابتداء من الجبل الاسود الى خليج آرتا ARTA . وقد تطلع العثمانيون المسلمون الى فتح هذا الاقليم لميزاته الاستراتيجية ، فهو يقع على الطرف الغربي لشبه جزيرة البلقان ، وعند مخرج بحر الادرياتيكي الى البحر المتوسط وهو يطل على عنق الزجاجة في بحر الادرياتيكي ، أي في أضيق مسافة بين الساحل الشرقي والساحل الغربي لهذا البحر ، وبالتالي فهو أقرب مكان في البلقان الى شبه الجزيرة الإيطالية ، وهو على مقربة من الجزر الأيونية ، وفي الاستطاعة اتخاذ موانيه قواعد عسكرية للقوات العثمانية في جهادها ضد

(١) فريدون بك ، منشآت السلاطين ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، الصنوق ، تاريخ دول الإسلام ، ج ٣ ، ص ١٠٣ ،

(٢) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٥ ، الشناوي ، نفس المرجع ، ص

البندقية وفيها من الدول والامارات الايطالية المسيحية والدول البحرينية
فى حوض البحر المتوسط . وأخضع السلطان مراد الثانى سكان يانينا Janina
وأغلب المدن ، دون عنا ، وقد وعدهم السلطان مراد الثانى بعدم التعرض
لهم فى دينهم وعوائدهم . وألزم السلطان مراد الثانى أمير الجزء الشمالى من
بلاد ألبانيا حنا كستريو Jean Castriot أن يسلم أولاده الأربعة
رهينة ليدل على صدقه ووفائه . ثم ضم السلطان مراد الثانى أملاكه
الى أملاك الدولة العثمانية بعد وفاته سنة ٨٣٥ هـ / سنة ١٤٣١ م . (١)

وفى عام سنة ٨٣٧ هـ / سنة ١٤٣٣ م اعترف فلاد (Vlad) حاكم
اقليم ولاشيا بسيادة العثمانيين عليه . وكان هذا الاقرار تخلصا من حرب
تخشى عاقبتها ، ولكنه ما لبث أن ثار هو وأمير الصرب ، بناء على تحريض
من ملك المجر سچسمند لهما ، فحاربهما السلطان مراد الثانى وتغلب
عليهما . ثم سار مراد الثانى الى بلاد المجر وخرب كثيرا من البلدان وعاد
منها سنة ٨٤٢ هـ / سنة ١٤٣٨ م ومعه الكثير من الأسرى . (٢)

وفى السنة التالية سنة ٨٤٣ هـ / سنة ١٤٣٩ م أعلن العصيان جورج
برنكوفيتش أمير الصرب فتوجه اليه السلطان مراد الثانى ، وحاصر مدينته

(١) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٦ ، الشناوى ، نفس المرجع ،

ص ٦٢٧ — ٦٢٨ .

(٢) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٦ .

(١) سمندرا (Semendra) القرية من بلغراد (٢) عاصمة بلاد الصرب
وضرب الحصار عليها ثلاثة أشهر ، فلما يئس جورج برنكوفيتش من الموقف
فر ملتجئاً الى الملك ألبرت ملك المجر الذى تولى عرش المجر بعد سجمند
سنة ٨٤١ هـ / سنة ١٤٣٧ م . وتوجه مراد الثانى الى ترانسلفانيا ، وحاصر
أهم مدنها مدينة هومانشتاد (Hermanstad) التابعة لملك المجر .
وكان حاكم هذا الاقليم هو حنا هينادى (Jean Hunyade) الذى
سيصبح له دور هام على مدى السنوات التالية حتى وفاته سنة ٨٦١ هـ / سنة
١٤٥٦ م . (٤)

وبدأت الرياح تغير اتجاهها فى الميدان الأوربي ضد أمانى السلطان
مراد الثانى بدءاً بوفاة ملك المجر سجمند سنة ٨٤١ هـ / سنة ١٤٣٧ م ،
وولاية خلفه الملك ألبرت الذى كان قد لجأ اليه جورج برنكوفيتش حين شدد
عليه السلطان العثماني الحصار فى سمندرا . وقد تنادى المجريون بحرب

-
- (١) سمندرا : معناها القديس اندريا ، وهى واقعة على نهر الطونة تبعد ٤٥ كم
عن بلغراد عاصمة بلاد الصرب .
(٢) بلغراد : معناها المدينة البيضاء ، مدينة حصينة على نهر الطونة بالقرب
من مصب نهر (ساف) .
(٣) ترانسلفانيا : معناها البلاد الواقعة فيما وراء الغابات أطلق عليها أهالي
النمسا هذا الاسم لوجود غابات كثيفة تفصلها عنها ، ولمجاورتها لبلاد
المجر صارت عرضة لكل من اراد الإغارة على بلاد المجر . (محمد فرید ،
الدولة العلية ، ص ٥٦) .

صليبية لانقاذ أوروبا من المملاق العثمانى المسلم ، الذى استطاع أن يحسوا آثار هزيمة أنقرة أمام تيمورلنك ، وأن يعيد تنظيم قواته الضاربة ، وأن يكتسح خصومه فى أوروبا ، والدولة البيزنطية على السواء ، بل أصبح يتهدد الدول الأوربية فى وجودها وكيانها أيضا .

وفى نفس الوقت تحركت الامبراطورية البيزنطية حين أحست بالضغط العثمانى عليها ، فدعا امبراطورها حنا الثامن الى التعاون مع القوات الأوربية لازالة هذا الخطر القادم من الشرق . وقام الامبراطور البيزنطى بزيارة الى ايطاليا ، حيث استطاع اقناع البابا يوجين الرابع Eugene IV بقيام وحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية ، كما حاول اغراء بطريرك القسطنطينية بمباركة هذا الاتحاد . وقد أثرت هذه المحاولة فى اقناع الطرفين حتى أعلن الاتفاق مبدئيا على توحيد الكنيستين فى فلورنسا (١)

وفى فلورنسا انعقد مجمع دينى فى سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م اتفق فيه الامبراطور البيزنطى والبابا يوجين الرابع على توحيد الكنيستين ، وعلى مبدأ ارسال حملة صليبية جديدة يكون هدفها المقدس اخراج الأتراك العثمانيين من الأراضى الأوربية ، وتخليص القسطنطينية من الخطر الاسلامى المباشر ،

(١) عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٣ ،

Cam. Med. Hist., Vol. 4, pp. 621 - 2622.

الذى أصبح يهددها بعد ذلك التوفل العميق للقوات العثمانية الاسلامية في البلقان ، حتى أصبحت القسطنطينية مثل جزيرة شبه معزولة ، يحيط بها من كل ناحية موج متلاطم من العثمانيين المسلمين . وقد كان هذا الاتفاق حدثا فريدا ، لأن ما بين الكنيسيتين من خلاف حاد وصل الى اتهام كل منهما بكفر أتباع الأخرى ، واعتبارها خارجة على تعاليم المسيحية . (١)

واستكر معظم رجال الكنيسة الأرثوذكسية من البيزنطيين ذلك الاتحاد المتوقع ، كما أثار احتجاجات الدول السلافية ، وخاصة روسيا التي رأى رجال الدين فيها أن موافقة بطريرك القسطنطينية على الوحدة الكنسية خيانة للمعتقد الصحيح ، رغم أن ثمن هذه الوحدة الكنسية هو المساعدة العسكرية للامبراطور البيزنطي . (٢) وأصبح موقف الامبراطور البيزنطي هنا الثامن حيال هذه المقاومة ضد وحدة الكنيسيتين أشد سوءا منه قبل التفكير فيها ، لأنه وجد نفسه لا يستطيع الاعتماد على ولاء رعاياه أو مساعدة الغرب المسيحي الأروبي . (٣)

(١) هسي ، العالم البيزنطي ، ص ٢٢٥ ، سعيد عاشور ، أوربا في الحصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٦٤٣ ، نوار الشعوب الاسلامية ، ص ٤١ ،

Cam. Med. Hist., Vol. 4., pp. 621-622.

(٢) عبد القادر اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٣

Vasiliev: op. cit., pp. 370 - 372.

(٣) هسي ، نفس المرجع ، ص ٢٢٥ .

أما الدعوة الى الحلف العسكري الصليبي فقد لقيت استجابة سريعة
ضد الاسلام المنتصر . وتكون حلف صليبي كبير باركه البابا . وشمل هذا
الحلف البابوية رأس الصليبية الحاقدة على العثمانيين المسلمين ، والمجر ،
بولندا ، والصرب ، وبلاد الافلاج ، (ولاشيا) وجنوه ، والبندقية ،
والامبراطورية البيزنطية ، ودوقية برجنديا . وكذلك انضمت الى الحلف كتائب
من الألمان والتشيك ، كل هذا اجتمع ليضرب الدين الاسلامي متمثلا في
الأتراك العثمانيين الذين هددوهم في عقود اراهم ، ونشروا الاسلام بين
ربوعهم .

وأبحر الى مياه الدردنيل أسطول من السفن الفلمنكية ، وسفن جمهورية
البندقية لتمنع انتقال العثمانيين من الأناضول الى أوربا . وبرز على سطح
الحوادث قائد مجري مشهور هو حنا هنيادي Jean Hunyade وهو
الذي أعطيت له قيادة هذا الحلف الصليبي . وكان من القواد الذين
اشتركوا معه ياغلون (Jagellon) ملك بولونيا ، ولاديسلاس
Ladislav ملك المجر الجديد . (١)

كانت المعركة الأولى بين القائد الصليبي هنيادي ، والجيش العثماني
هي معركة هومانشتاد Hermanstad سنة ١٤٤٥ هـ / ١٤٤١ م حيث

(١) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٦ ، الشناوي ، نفس المرجع ، ص
٦٣١ - ٦٣٢ .

أسرع الصليبيون الى نجدة المدينة ، واستطاعوا رد القوات العثمانية المحاصرة لمدينة هومانشتاد وقتلوا منهم ٢٠٠٠ ر ٢٠ عشرين ألفا منهم قائد هم العثماني شهاب الدين ، وأرغموا الباقين من العثمانيين الى التقهقر خلف نهر الدانوب . ولما علم السلطان بالنبا أرسل جيشا آخر بقيادة شاهين باشا ، ولكن هنيادى وجنوده استبسلوا حتى هزموا الجيش العثماني المسلم ، ووقع شاهين باشا أسيرا فى معركة قرب بلد يقال لها وازاج أو فاساج (Vasage) سنة ٨٤٦ هـ / سنة ١٤٤٢ م ، وأبيد فى هاتين الهزيمتين جيشان عثمانيان .

وكان السلطان مراد الثانى أثناء هذه الممارك مشغولا بمحاربة ابراهيم أمير بلاد كرميان ، وحين فرغ السلطان مراد الثانى منه ، كان المجريون بقيادة هنيادى قد أحرزوا هذه الانتصارات واتفقوا مع الصربيين على محاربة العثمانيين .

وحين توجه السلطان مراد الثانى لملاقاتهم جبهة بلغراد تقهقر المجريون وحلفاؤهم ، ولكنها كانت خدعة صليبية ، فبينما كانت جيوشهم أخذة فى التقهقر ، والعثمانيون يتعقبونهم فاذا بهم فجأة يرتدون كارين على جيوش السلطان الذين كانوا يسيرون خلفهم فى مضيق " نيش " . وقد كانت القوة

(١) شاكر الخبلى ، التاريخ العثماني ، ص ٣٣ ، الشناوى ، نفس المرجع ،

Creasy: op. cit., p. 64. ; Miller: The Balkans, pp. 293-294.

ص ٦٣٢

الرئيسية الصليبية في هذه المحارك مكونة من المهنغارين والصربيين والولاشيين والألمان . وقامت هذه القوات الصليبية بعبور الدانوب قرب ~~سمندرا~~ (Semendra) (١) ، وقام هنيادى على رأس ١٢٠٠٠ اثنا عشر ألفا من الفرسان المختارين واندفع بهم قرب حوائط " نيس " Nissa ، وتبعه الملك لاديسلاس ، والكاردينال جوليان ليصبحهم البولنديون ، وجزء من القوات المهنغارية ، وصليسيو ايطاليا . (٢)

وفي سنة ٨٤٧ هـ / ٣ من نوفمبر سنة ١٤٤٣ م أحرز هنيادى انتصاره على السلطان مراد الثانى عند شاطئ نهر المورافا Morava قرب نيس ، وهزم الجيش العثماني الكبير ، وتشتت في البلقان بعد أن خسر تسعة ألوية و ٤٠٠٠ أربعة آلاف أسير ، وعدة آلاف من القتلى . (٣) وظل هنيادى يتعقب فلول الجيش العثماني الى ما وراء جبال البلقان ، واستولى في طريقه على مدينة صوفيا التي هيأت له الاستعداد لعبور البلقان ، والتقدم

(1) Creasy: op. cit., p. 64.

(٢) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ج ١ ، ص ٥٣ ، شاكرا الحنبلى ، التاريخ العثماني ، ص ٣٣ ، نواز ، الشعوب الاسلامية ، ص ٤١ ، المازنى ، تاريخ الدولة العلية ، ص ٢١ .

(٣) يوسف آصاف ، تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ٤١ ، Creasy: op. cit. ; Dielh: History of the Byzantine Empire, p. 164.

(١)، Philippopolis

الى فيليبوبوليس

وكان هناك ممران واعران خلال جبال البلقان الشاقة ، وكان لهما مدخلان في الشمال قريب أحدهما من الآخر يسمى الغربى منها مضيق سلوردبندن (Soulourderbend) والآخر شرقا ويسمى اسلادى Isladi أو Slatiza ، وهما يصلان عبر البلقان الى طريق من صوفيا الى فيليبوبوليس . وقد لجأ العثمانيون الذين يطارد هم هنيادى الى الدفاع عن هذين الممرين باغلاقهما بأكوام من الصخور . ولما رأوا المجرىين يتقدمون صبوا الماء خلال الليل من على منحدرات الجبال ، وأدى ذلك الى أن يتكون فيها عند الصباح حائط من الجليد أمام زحف المسيحيين . ولم يعبأ هنيادى بهذه الحوائق ولا السهام التى كانت تصب عليهم من العثمانيين المسلمين المتحصنين خلفها ، وأخذ يحبس جنوده بالنداء ويحثهم على تسلق الصخور عبر الممر الغربى الى أن وصلوا الى مكان آمن . وهناك تراجع المجرىون لكى يحبروا من الممر الشرقى الذى كان أقل تحصينا . (٢)

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ج ٣ ، ص ٦٥٣٨ ، Creasy: op. cit., p. 653.

Miller: op. cit., pp. 293-294.

وفيليبوبوليس : أى مدينة فيليب نسبة الى مؤسسها فيليب والد الاسكندر الأكبر وهى عاصمة الروملى الشرقية . (أنظر ، محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٤٥) .

(٢) الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ٤١-٤٢ ، Creasy: op. cit., p. 66.

وهناك قضت قوات هنيادى بقية الشتاء تشق طريقها تحت واهل من
سهام المسلمين فى ذلك البرد القارس ، ولكنهم استطاعوا فى النهاية
أن يحققوا نصرا على العثمانيين وأن يحتفلوا بعيد ميلاد سنة ١٤٤٣ م على
تلك السهول الثلجية عند الطرف الجنوبى للبلقان . وقد هزل الغرب المسيحى
الحاقد لهذا النجاح ، كما بارك البابا يوجين الرابع تلك الجهود . (١)

ومن الواضح أنه لم يكن فى مقدور هذا التحالف الصليبي وعلى رأسه
البابا ، والقائد المجرى هنيادى أن يوقع هذه الهزائم المتعاقبة بالعثمانيين
الا فى ظروف غير مواتية تربها السلطنة ، فقد كان العثمانيون مشتقى القوى
لانشغالهم باخماد الفتنة التى أثارها وتزعسها اسكندريك فى ألبانيا . فقد
انتهز اسكندريك فرصة اشتغال السلطان مراد الثانى وجيوشه بمواجهة
التحالف الصليبي ، واستطاع أن يثير زعما شمال ألبانيا بهدف طرد
العثمانيين منها . وقد ظلت فتنة اسكندريك حتى بعد استعادة مراد الثانى
لهيئته بانتصاراته فى فارنا (Varna) وأرنه ولم يخمد حركته الا السلطان
محمد الفتاح فيما بعد . (٢)

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ج ٣ ، ص ٣٨ ، سعيد عاشور ، أوروبا ، ج ١

ص ٦٤٣ ، Lodge: op. cit., pp. 507-508; Creasy: op. cit., pp. 65-66.

(٢) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ج ٣ ، ص ٣٨ ، محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٨ .

Creasy: op. cit., pp. 62-63.

أزعج السلطان مراد الثانى توالى الهزائم على قواته العثمانية ، فى أوروبا ،
والحلف الصليبي القوى الذى قام ضده هناك . واضطر العثمانيون — لأول
مرة فى تاريخهم الحافل بالأمجاد — أن يطلبوا الصلح . وجرت مفاوضات
طويلة انتهت بتوقيع معاهدة فى مدينة سيزيجيدين Szegedin فى
٢٦ من ربيع الأول سنة ٨٤٨ هـ الموافق ١٢ من يولية سنة ١٤٤٤ م والتي
تمس على قيام هدنة مع المجر لمدة عشر سنوات . ومقتضى هذه المعاهدة
تنازل السلطان مراد الثانى عن كل ادعاء له فى الصرب مع اعترافه
بجورج برانكوفيتش بوصفه حاكمها المستقل ، كما سلمت ولاشيا الى المجر ،
ودفع السلطان مراد الثانى ستين ألف من الدوكات الذهبية فدية لزواج أخته
محمود تكلبي الذى كان قائد الجيش العثمانى ضد هنيادى وأسر فى
المعركة ، وكتبت هذه المعاهدة باللغة الهنغارية واللغة التركية . (١)

وأقسم لادسيلاس ملك المجر على الانجيل ، كما أقسم السلطان
العثمانى مراد الثانى على القرآن على احترام الهدنة . وقام السلطان
من جانبه بتنفيذ المعاهدة ، وعاد كسير النفس محزوناً . وصادف ذلك وفاة
ابنه الأكبر علاء الدين فزهى فى الملك وأثر الحزلة والتكشف ، فتنازل

(١) سوريال عطية ، نفس المرجع ، ص ١٠٢ ، محمد فريد ، نفس المرجع ،

ص ٥٧ ، عبد القادر اليوسف ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ ،

Creasy: op. cit., p. 66.

عن الملك لولده محمد الثاني الذى كان يبلغ من العمر آنذاك أربعة عشر عاماً. وسافر هو الى مغنيسيا فى آسيا الصغرى حيث اعتزل الحياة العامة. (١)

لم تضى أسابيع قليلة على توقيع المعاهدة بين العثمانيين والصليبيين حتى طلب البابا والامبراطور البيزنطى من ملك المجر ومستشاريه أن يقسموا على نقض القسم الذى أعطوه للسلطان العثمانى مراد الثانى . وأعلن الكاردينال جوليان الذى كان يتكلم باسم البابا أنه لا يجوز التمسك بقسم أعطى للكفرة غير المسيحيين ويقصد بذلك العثمانيين ، ولكن القائد هنيادى قاوم بشدة محاولات نقض الهدنة . ولكنه سرعان ما نسى مبادئ الفروسية ووافق على الاشتراك فى هذا الخدر الصليبي ، حينما لوحوا له بأنه سيصبح ملكاً على بلغاريا عندما يطرد منها الأتراك العثمانيون . كما أوهموه بأنه ليس مقيداً بأي شرط من شروط معاهدة سيزيجيدين حيث أنه لم يوقع عليها ، وليس يشترك فى أداء اليمين على احترام أحكامها . (٢) لكنه طلب منهم تأجيل نقض الهدنة الى جمادى الأولى سنة ٨٤٨ هـ الموافق أول سبتمبر سنة ١٤٤٤م حتى يتحقق للقوات المتحالفة السيطرة على الصرب حينما يتم انسحاب

(١) شاكرا الحنبلى ، التاريخ العثمانى ، ص ٣٣-٣٤ ، هس ، العالم

البيزنطى ، ص ٢٢٥ ، الشناوى ، نفس المرجع ص ٦٣٣ .

(٢) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٧ ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ص

٣٨ ، نوار ، نفس المرجع ، ص ٤٣ .

الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٣٣ ، فيشر ، تاريخ أوروبا. الحصور الوسطى ،

Creasy: op. cit., p. 68.

ق ٢ ، ص ٤٥٦ ؛

العثمانيين منها طبقا لشروط المعاهدة ، وهذا وحده كسب كبير لهم . وكان
العثمانيون فعلا صادقين فلقد أقسموا على القرآن الكريم أن يصدقوا ففى
تطبيق المعاهدة ، وأخذوا بالفعل يجلون عن الصرب .

وفى الموعد الذى حدده هنيادى أول سبتمبر سنة ١٤٤٤ م سار الملك
لادسلاف والمندوب البايوى الكاردينال جوليان ، وهنيادى وفاجشأوا
العثمانيين ، وقد حركوا معهم جيشا كثيفا من البولنديين والمجريين
يحفزهم على ذلك استهانتهم بالسلطان الصغير محمد الثانى بن مراد الثانى ،
وظنهم أن السلطان محمد الثانى لن يستطيع تدبير الأمور لدفعهم ، أو كسر
شوكتهم الصليبية واطمأنوا الى ابتعاد السلطان مراد الثانى عن الحياة
السياسية ، والعسكرية ، واعتزله فى فنيسيا . وتقدم الصليبيون الى ولاشيا
وهناك انضم اليهم أميرها دراكول مع قواته . وأخذ الجيش المسيحى الواتق
من نفسه ، المخزور المظمتن الى ضعف خصومه ، يعبر نهر الدانوب وهو
ممتلىء ثقة بالفوز والخلبة . وساروا عبر بلغاريا حتى وصلوا الى البحر الأسود .
وهناك ابتدأوا يتحركون الى الجنوب على طول الشاطئ ، حيث دمروا
التحصينات عند كوندجك (Koundjik) . وساعدتهم المفاجأة وعدم
توقع العثمانيين للخيانة فاستسلمت لهم حصون كثيرة . (١) وكذلك هاجموا

(١) شاكر الحنبلى ، التاريخ العثمانى ، ص ٣٤ ، الشناوى ، نفس المرجع

تحصينات سانيم (Sunnuim) وپريش (Perech) وأبيدت الحاميات
العثمانية في هذه الأماكن . وواصلوا زحفهم بحدد ذلك على كافارونفنا
(Kavarna) واستولوا عليها ، ثم وصلوا الى مدينة فارنا (Varna)
وارنه الشهيرة وفرضوا عليها الحصار . وظلوا يشددون عليها حتى استسلمت
للقائد هنيادي . (١)

وكان امتلاك التحالف المسيحي الصليبي الحاقق لمدينة وارنه هو
قمة النجاح الذي حققوه ضد الامبراطورية العثمانية الاسلامية في أوربا ،
وخاية المد الذي وصلت اليه انتصارات هنيادي . (٢) ولقد عسكر الصليبيون
المنتصرون بالقرب من وارنه التي استسلمت لهم ، وظنوا أن الأمور ستجسرى
كما يشتمون .

وفي الجانب الآخر نجد وزراء الدولة العثمانية قد أحسوا بهذا التدهور
الحاد في موقف الجيوش الاسلامية العثمانية ، فاتجهوا الى السلطان مراد
الثاني حيث كان يحتزل الناس في مغيسيا ، وأبلغوه بهذه الأنباء المزعجة
وطلبوا اليه العودة ليمسك زمام السلطة من جديد ، لانقاذ الدولة من

(١) يوسف آصاف ، نفس المرجع ، ص ٤١ ، Greasy: op. cit., p. 68.

(٢) سرهنك ، نفس المرجع ، ص ٥٠٤ ، Greasy: op. cit., p. 69.

الانهيار أمام المد الصليبي الزاحف من شواطئ البحر الأسود ، والخطر الكبير الذى يوشك أن يستأصل دولة الإسلام من عدوة أوربا . ولم يجتهد الرجل بدا من أن يستجيب الى وزراءه ، وينهض للأمر الذى ندبوه له فترك عزلته وعاد يتولى زمام الأمور ، وأنعمت هذه العودة آمال الجنود فى أن تعود أيام النصر المشرقة . (١)

وشكل السلطان مراد الثانى جيشا كبيرا ، وثار حمية السلطان لنقض أعدائه وأعداء الدين الإسلامى عهدهم ، واستهانتهم بالقسم الذى أقسموه ، وأعطاه ذلك قوة واندفاعا ، فتقدم ومعه أحسن المقاتلين فى آسيا التركية حيث حملهم الجنويون على سفنهم وكان عددهم ٤٠٠٠٠ أربعين ألفا (٢) على رأسهم السلطان العثمانى مراد الثانى بنفسه ، وعبروا البوسفور مقابل أجر أخذه الجنويون وذلك للتمويه على الأسطول البايوى الذى كان يقوم بدورياته فى مياه البوسفور . (٣)

(١) نوار ، نفس المرجع ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، سوريال عطية ، نفس المرجع ، ص ١٠٣ ، زينى دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، ص ٧٥ ، المازنى ، نفس المرجع ، ص ٢٢٠ .

(٢) الفاجورى ، تحفة الأنام ، ص ٢٠٦ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٣٤ .
Creasy: op. cit., pp. 68 - 69.

(٣) سوريال عطية ، نفس المرجع ، ص ١٠٣ ، الرشيدى ، نفس المرجع ، ص ٤٥ .
Creasy: op. cit., p. 68.

وفوجئت الجيوش الصليبية بالأخبار المزعجة لهم . وانهم الآن على مقربة من جيش عثمانى مسلم عبر اليهم البوسفور من حيث لا يعلمون ، وانهم لا يواجهون الآن تدبير الصبي محمد الثانى ، وانما عاد اليهم الرجل المحنك مراد الثانى مرة أخرى ، وان هذا الجيش الفاضل لخيانتهم ، وفددهم^(١) يسعى اليهم مسرعا ، وأنه أصبح الآن على بعد أربعة أميال من وارسه .

وساعد الجيش العثماني عامل آخر ، فقد كان المتوقع أن الجيش الصليبي وهو يزحف صوب الجنوب سيجد نفسه بين أرض مسالمة ، وشعب مسيحي يرحب بهم ، ولكن سوء تصرف هذا الجيش ، وحدة التعصب المذهبي أفسدت عليه هذه الميزة ، لأنه عامل بقسوة وشراسة بعض القوى المسيحية التي قاومت ، واستمر السلب والنهب وهو في طريقه جنوبا .^(٢) ومضت تسبق زحف الجيش الصليبي تلك السمعة السيئة وتلك الأخبار المروعة عن التدمير والتخريب ، مما جعل طريقه الى الجنوب محفوا بالأشواك . وكان الجيش الصليبي نفسه يحمل في ذاته عوامل مدمرة ساعدت على انهيار أيام زهوه وانتصاراته ، فمع ربح الخدر ، ووذيلة القسوة كانت أخطاء القادة وحسد بعضهم لبعض واضحة ، وكانت الخلافات بين قيادات الجيش الصليبي

(١) فيشر ، نفس المرجع ، ق ٢ ، ص ٤٥٦ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٣٤ ،

Creasy: op. cit., p. 69.

(٢) شاكر الحنبلى ، نفس المرجع ، ص ٣٤ ، زيادة ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ ، نوار ، نفس المرجع ، ص ٤٤ .

تزداد عمقا مرحلة بعد مرحلة ، والخلاقات الجوهرية تطل برأسها مع كل موقف حول الخطة التي يجب أن تتخذ ضد العثمانيين .

كان هنيادى يدعو الى شن حرب هجومية فى حين كان قائد آخر هو فلاد دراكيل (Vlad - Dracul) يفت فى عضد المقاتلين الأوربيين ، ويدعو الى تأجيل الحملة الى السنة القادمة حتى يتمكن من اعداد حملة تكون أكثر عددا ، وأقوى تسليحا وتماسكا ، إلا أن وجهة نظر هنيادى هى التى تغلبت . (١) وكان هناك فى نفس الوقت من يحسن هنيادى على ما حصل عليه من صيت وشهرة ، وتناقل عن بطولته وشجاعته حتى أصبح بطلا شعبيا ، فكان هناك من يسمي الى أن يحل محله فى زعامة الحركة الصليبية الجديدة ، ويأمل أن يقترن النصر المرتقب باسمه هو شخصيا لا باسم هنيادى . وكان من بين هؤلاء الحاقدين المنافسين لادسيلاس ملك المجر الذى كان يصر بأى شكل من الأشكال على أن يكون هذا النصر باسمه هو ولكن دون أن يعلن الخروج على هنيادى .

(١) نوار ، الشعوب ، ص ٤٤ .

(٢) سرهنك ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٥٠٤ ، بروكلمان ، نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٣٩ ، بولجير ، تاريخ العالم ، المجلد ٥ ، ص ٦٠٥ .

عرفنا من قبل أن العثمانيين قد التزموا بكلمتهم ، ووفوا بم عهدهم ،
وانسحبوا من صربيا ، وانتهزها هنيادى فرصة وقام بالهجوم على بلغاريا
بجيش مكون من عشرة آلاف ، حتى حاصروا رنه ، وانضم اليه فلاد (Vlad)
حاكم ولاشيا بقوة بلغت خمسة آلاف مقاتل . وكان هذا الحاكم يسخر من
قلة عدد الحملة الصليبية قائلا " ان حاشية السلطان التى تخرج معه للصيد
أكثر من هذه الحملة الصليبية " .

ومع ذلك فان هذه القوة الصليبية كان على رأسها حشد من القادة
والحكام ورجال الدين منهم ملك المجر لاسيلاص ، وحاكم ولاشيا ، والقائد
هنيادى ، والقاصد الرسولى واثان من الأساقفة . وأخيرا وصل السلطان
مراد الثانى بجيش عثمانى قوامه أربعون ألفا حتى أصبح فى مواجهة الجيش
الصليبي . ووقع الاشتباك فى ٢٨ من رجب سنة ٨٤٨ هـ الموافق التاسع
من نوفمبر سنة ١٤٤٤ م . (١)

وكانت الطريقة التى عبا بها هنيادى قواته تدل على ثقته الكبيرة
المفروسة فى نفسه . فانه رفض النصيحة التى أبدأها بعض مستشاريه العسكريين
بأن يعمل تحصينات حول معسكرهم ، وينتظر حتى يهجم السلطان مراد الثانى .

(١) الشناوى ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٦٣٤ ، الرشيدى ، نفس المرجع ،

ص ٤٥ - ٤٦ ، نوار ، نفس المرجع ، ص ٤٥ ،

Diehl: op. cit., p. 164.

(١) ولكنه أصر على المهادنة بالتقدم نحو عدوه . فى حين أن السلطان مراد الثانى أقام بعناية تامة خندقا عميقا حول معسكره واتخذ التحصينات اللازمة . وكان الجناح الأيسر المسيحى يتكون بصفة رئيسية من قوات ولاشية ، وفى الجناح الأيمن أحسن القوات الهنغارية ، ومعهم أيضا صليبيوا الفرنجة تحت قيادة جوليان . وكان الملك لاسيلاس فى الوسط مع حرسه الملكى ، وكثير من النبلاء . أما المؤخرة فكانت من البولنديين بقيادة أسقف بيترواردسين ، وتولى هنيادى القيادة العامة للجيش كله . (٢)

أما فى الجانب العثمانى فقد كان الصفان الأولان يتكونان من الفرسان ، وقوات غير نظامية — وكان بيلربك حاكم الرومىلى (٣) يقود الميمنة وبيلربك آخر هو حاكم أنطوليا يتولى الميسرة ، ومن خلف هذه الصفوف اتخذ السلطان موقعه مع قواته ، والفرسان النظاميين من حرسه . وعلقت صورة من

(1) Creasy: op. cit., p. 69.

(2) Creasy: op. cit., p. 69.

(٣) الرومىلى : أوروميليا : يطلق الاسم روم ايلى (أى بلاد الرومانيين Romans) بمعناها الإخص على الولاية نفسها التى تحمل هذا الاسم ، وهى تضم تراقيا ، ومقدونيا ، أى المنطقة التى تحد شمالا بالبلقان ، وشرقا بالبحر الأسود والبوسفور ، وجنوبا ببحر مرمرة وبحر إيجه المعروف بالبحر المتوسط ، ثم بسلسلة جبال أولمبوس ، وتحد غربا بجبال بندوس Pindos وبارنوس Barnos وشاردانج (شاربلاينا) وهى المنطقة التى تضم الممتلكات السابقة لتراقيا ، وبلغاريا ومقدونيا والصرب والبانيا . (أنظر دائرة المعارف الإسلامية ، الرومىلى ، المجلد ١٠)

المعاهدة التي نقضت على سارية عالية تتقدم صفوف العثمانيين لتكون شاهدا على خيانة هؤلاء الفادريين • وقد بدت المعركة في ظاهر الأمر وكأنها ستنتهي بانتصار حاسم للمسيحيين •

وأجرى هنيادى تنظيمات في توزيع الجيش تتسم بالحيطة ، والحرص الشديد • وطلب الى الملك لادسيلاس مشددا ألا يغادر موقعه المعين له ، إلا عندما يعطيه الإشارة • وفي الوقت نفسه بدأ هنيادى عملياته بطريقته الخاصة ، وأحرز تقدما كبيرا حيث قاد الميمنة ، وهاجم القوات الآسيوية بشدة ، واكتسح صفوفها ، وأجلاهم عن مواقعهم ، وكذلك الجناح الآخر الصليبي تحرك فيه البولاشيون مهاجمين فرسان غرب روميليا (AZABS Roumelia) • وحصلوا على نجاح مباشر في هجومهم • (٢) ولكن الملك لادسيلاس الحاسد الحاقذ الذي اعتقد أن الفوز قد لاح ، والنصر أصبح مضمونا ، خشى أن يحرم من هذا الفخار ، فأمر فرسانه بالمهجوم من القلب فتراجعت القوات العثمانية التي كانت في مواجهتهم وانساقوا وراءها يوالون هجومهم • وبهذا تكون جميع فرق الصليبيين قد حققت أول المعركة انتصارا سريعا مرحليا • ولكن تكتيك العثمانيين كان يعتمد على حدة الهجوم ، وعلى

(١) فيشر ، نفس المرجع ، ق ٢ ، ص ٤٥٦ ، نوار ، الشعوب الإسلامية ، ص ٤٥

Creasy: op. cit., p. 69.

(٢) بولجير ، تاريخ العالم ، م ٥ ، ص ٦٠٥ ، الصوفي ، تاريخ دول الإسلام ،

Creasy: op. cit., p. 70.

ج ٣ ، ص ١٠٤

القوات الانكشارية التي كانت تحصيناتها عند المرتفعات الواقعة شمال المدينة •
واندفع لادسيلاس وفرسانه في هجوم عنيف قاصدا الهجوم على السلطان
مراد الثاني نفسه الذي كان واقفا على تل مرتفع يعطى الأوامر لجيشه فاذا به
يصطدم بالقوات الانكشارية الهائلة • وهنا أطبقت الجيوش العثمانية —
الاسلامية على لادسيلاس وجنوده وأبيدت القوات المجرية • وقاتل الملك
لادسيلاس حتى سقط عن فرسه • وقتله الجنود العثمانيون لحنقهم عليه
بسبب غدره • ونقضه للمعاهدة • ورفعوا رأسه على عمود الى جوار صورة
المعاهدة التي نقضها (١) ودب الرعب والفرع في قلوب من بقى من الجنود
وفروا هاربين تأخذهم سيوف العثمانيين في كل مكان • وصار هنيادي قائم
الصليبيين يجمع فلول الحساكر • ويخرضهم على الرجوع • والثبات • فلم ينجح
في ذلك لأن الرعب كان قد استولى على قلوبهم • وقتل منهم في ذلك اليوم
ما يزيد على عشرة آلاف • ونظمت القوات العثمانية في هذه المعركة (وارنسة)
غنائم لا تحصى • وكان ذلك في ٢٨ من رجب سنة ٨٤٨ هـ / التاسع
أو الثاني عشر من نوفمبر سنة ١٤٤٤ م • (٢)

(١) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ص ٥٠٤ ، سعيد عاشرو ، الحركة الصليبية ،

ج ٢ ، ص ١٢٥٢ ، يوسف أصاف ، نفس المرجع ، ص ٤٢ •

(٢) بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ج ٣ ، ص ٣٨ — ٣٩ ، سوربال عطية ،

نفس المرجع ، ص ١٠٣ ، كمال توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٢٦

Atiya: The Crusade in the later Middle Ages, p. 467. ;

Shaw: History of the Ottoman Empire and Modern Turkey,
Vol. I, pp. 51 - 52.

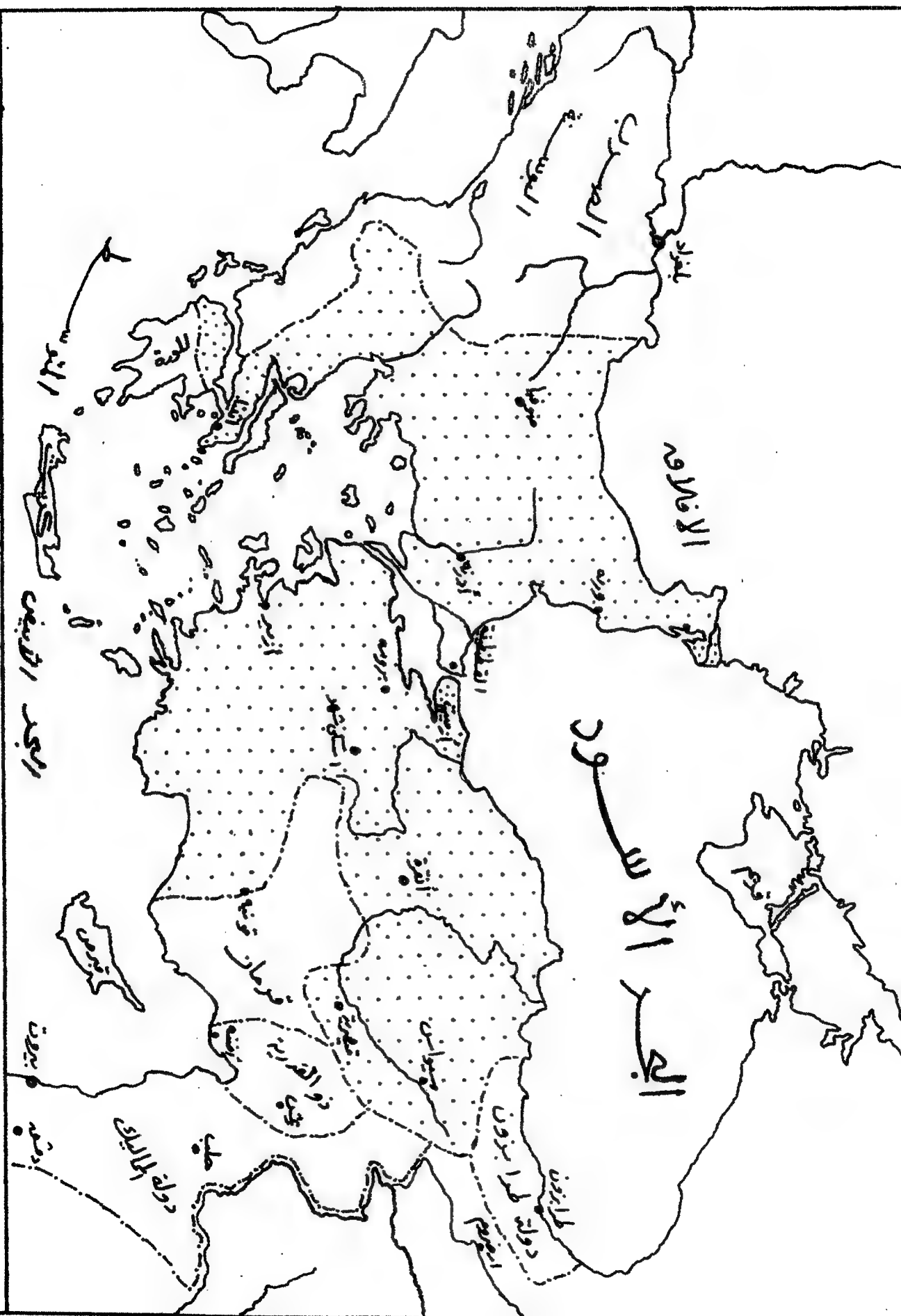
وهذه النهاية ملاء الرعب قلوب النبلاء المجريين ، وولى القلب كله
هاريًا في فوضى ، وفشل هنيادي في زحزحة القوات العثمانية المسلمة —
(١)
وأخيرا فر هنيادي مع بقايا قواته ، ومع الولايشيين الذين تجمعوا حوله .
أما المجريون الذين كانوا يمثلون المؤخرة ، فقد استسلموا مع قادتهم . وقتل
غير ملك المجر الكاردينال جوليان البهوث البابوي والذي كان السبب
المباشر في نقض معاهدة (سيزيجيدين) . ولم تسبب هذه الهزيمة تدمير
المجر مباشرة ، ولكنها كانت قاسية على الصلافيين جيران العثمانيين ، والذين
كانوا قد انضموا الى ملك هنغاريا .

(٢)
واكتسح العثمانيون مرة أخرى كلا من الصرب ، والبوسنة ، وكان سكان
الصرب ، والبوسنة يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية ، ولهذا كانوا يحاطلون من
إخوانهم مسيحي المجر وولندا ، الذين كانوا يتبعون الكنيسة الكاثوليكية —
معاملة سيئة ، وينظرون اليهم كما ينظرون أيضا الى الكنيسة البيزنطية نظرتهم
الى الهرطقة . وتحكى المصادر الصربية أن جورج برنكوفيتش سأل مرة هنيادي
عما سيتبعه من الناحية الدينية اذا تحقق له النصر ، فأجاب هنيادي بأنه

(١) بولجير ، تاريخ العالم ، م ٥ ، ٦٠٥ ، سوريال عطية ، العلاقات بين
الشرق والغرب ، ص ١٠٣ ، اليوسف ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ ،

Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 577.

(٢) أحمد شلبي ، نفس المرجع ، ص ٤٨٨ ،
Creasy: op. cit., pp. 70 - 71.



الدولة العثمانية في عهد السلطان مراد الثاني [١٥٢١ - ١٥٦٥]

سيجبر الجميع على اتباع الكيسة الرومانية الكاثوليكية ، وانه أيضا وجه نفـس السؤال للسلطان مراد الثانى فأجابـه بأنه سيبنى بجوار كل مسجد كيسة ، وسيترك للناس حرية اتباع عقائدهم . (١)

وهذا يوضح تماما أن المسلمين ماكانوا يعمدون الى اكراه الناس على اعتناق الاسلام . وهذه الصفات التى اتصف بها السلطان مراد الثانى من سمو بالمعاني الانسانية ، وروح التسامح الكريمة التى أملاها عليه دينه ، وعقيدته كانت سببا فى جذب قلوب المسيحيين وتحلقهم بالدولة العثمانية الاسلامية بعد مقارنتهم بين ما أعلنه هنيادى وبين ما أبداه السلطان مراد الثانى من التسامح الدينى . فلا غرابة اذ كان النصر دائما فى جانب العثمانيين المسلمين ضد المسيحيين المتعصبين ، ولا غرابة أيضا أن يزوج أمير الصرب جورج برانكوفيتش ابنته للسلطان مراد الثانى والتى تدعى مارا Mara بعد أن لمس فى السلطان روح التسامح الدينى وكانت هذه الزيجة سببا فى توثيق التحالف بين الدولة العثمانية وبين الصرب التى رفضت تقديم أية مساعدة للقائد هنيادى حينما حاول أن يثار لهزمته فى وارنه سنة ١٤٤٨م (٢)

(1) Creasy: op. cit., pp. 70 - 71 - 72.

(٢) الشناوى ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٦٣٥ ، توماس أرنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٢٣ .

وقضى الانتصار الرائع الذي حققه السلطان مراد الثاني على الصليبيين في معركة وارانة سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م على آخر آمال الغرب الأوربي الصليبي في انقاذ الدولة البيزنطية من الانهيار التام، وأدى السقوط المخزي للقسطنطينية في يد السلطان محمد الفاتح بعد ذلك بتسع سنوات تقريبا .

وقد أراد السلطان مراد الثاني أن يعود مرة أخرى الى عزلته لكنه لم يكدر يفعل ذلك حتى ثار الانكشارية في أدرنة سنة ٨٤٩ هـ / سنة ١٤٤٥ م ، فبرأى السلطان مراد الثاني أن ابنه محمد الثاني أصغر من أن يقبض على زمام الموقف (١) فعاد السلطان مرة أخرى ، واستطاع القبض على زمام الأمر وخضع له الانكشارية ، وواصل السلطان مراد الثاني حركة الجهاد الاسلامي بادئا ببلاد اليونان وذلك بعد أن قضى على كل باوقة أمل للغرب الصليبي في انقاذ الإمبراطورية البيزنطية الآيلة للسقوط في أيدي المسلمين المجاهدين .

عاود السلطان مراد الثاني الجهاد الاسلامي مرة أخرى بادئا ببلاد اليونان حيث كان يحكم أثينا في ذلك الحين دوق فلورنسى يدعى نيريو اكسييفولى (Nerio Acciaivali) وكان يدفع الجزية للدولة العثمانية . فلما شغل السلطان مراد الثاني بحروبه ضد التحالف الصليبي انتهز قسطنطين حاكم الموره

(١) زيني دحلان الفتوحات الإسلامية ، ص ٧٦ ، محمد فريد ، نفس المرجع ، ص ٥٧ ، الشناوي ، نفس المرجع ، ص ٦٣٤ .

وأخو الامبراطور البيزنطى هذه الفرصة فتعدى على هذا الدوق وطرده من امارته ، وشيد سورا ضخما على برزخ كورنثس بمعونته أخيه توماس ثم استقر فى المورة . (١) ولكن هذا السور لم يعق الجيوش العثمانية الإسلامية ، فلقد سلط عليه السلطان مراد الثانى مدافعه التى أحدثت ثلما فى السور دخلت من خلاله الجيوش الإسلامية العثمانية الى مدينة كورنثس . وبذلك تم فتح المدينة ، وقبل قسطنطين أن يدفع اتاوة سنوية للسلطان وكان ذلك سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م . (٢)

ثم وجه السلطان مراد الثانى جهوده بعد ذلك الى ألبانيا حيث لقى عدوا لدودا كان من مشيرى الفتن فى البلاد العثمانية أثناء حروب السلطان مراد الثانى مع الصليبيين وهذا العدو هو جورج كاستريوتا G. Kastrioti الذى اشتهر باسمه الاسلامى اسكندر بك أمير ألبانيا الشمالية . وكان كاستريوتا والد جورج هذا قد سلم الى السلطان مراد الثانى أبناءه الأربعة ليكونوا رهائن عنده ، ومات منهم ثلاثة أطفال وبقي منهم أصغرهم وهو جورج كاستريوتا . وأحببه السلطان مراد حبا عظيما ، وكان يحنو عليه حنو الأب على ابنه . ونشأ جورج كاستريوتا فى القصر العثمانى نشأة إسلامية ، وعنى مراد بتربيته عقليا وجسميا حتى بلغ درجة كبيرة من الثقافة ، وصهر فى ركوب الخيل

(١) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٧ .

(٢) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٧ — ٥٨ .

والضرب بالسيف ، وأساليب القتال . وعهد اليه السلطان مراد الثانى بولاية من ولايات الدولة العثمانية ، ولقبه اسكدر بك ، ولما انهزم العثمانيون فى نيس سنة ٨٤٧ هـ / سنة ١٤٤٣ م واضطرب أمرهم لغتتم اسكدر بك هذه الفرصة وأسرع فى الفرار واتبعه ثلثمائة من مواطنيه الألبانيين الذين ناصروه . ووصل اسكدر بك الى كرويا Kruya (آق حصار) (١) وهى حاضرة أسرة كاستريوتا فرحب به الناس على أنه الوالى الجديد من قبل السلطان مراد الثانى . ثم دعا الجيش الألبانى وزعماءه الى حمل السلاح للدفاع عن حرية بلدهم فلبوا نداءه وأجمعوا على اختياره زعيما لهم وقائدا . وأصبح اسكدر بك السيد المطاع فى ألبانيا وارتد عن الاسلام الى النصرانية وأعلن حربا صليبية جديدة على الأتراك العثمانيين . (٢)

بلغ جيش اسكدر بك اثنين وعشرين ألف رجل . واتخذ كرويا قاعدة لأعماله الحربية . فلما سير السلطان مراد الثانى جيشه بعد ذلك بقيادة على باشا هزمه اسكدر بك شر هزيمة . وحاول السلطان مراد الثانى بعد انتصاره فى معركة وارنه سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م أن يستميل اسكدر بك اليه بالحسنى فكتب اليه يدعوهُ الى الطاعة ويعدّه بالمغفولم يزدّه ذلك الا تمنا

-
- (١) توماس أرنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٠٥ ،
(آق حصار) مدينة بألبانيا فى سنجق اسقودره وتسمى اليوم " آتجه حصار "
(أنظر دائرة المعارف الاسلامية مادة آق حصار) .
(٢) محمد فريد ، نفس المرجع ، ص ٥٨ ، الرشيدى ، محمد الفتاح ، ص ٤٩ .

واستكبارا ، واصراراً على الكفر والصليبية • وكتب الى السلطان مراد الثانى
يود دعوته ، ولقب نفسه بجندى المسيح ، وأمير الألبانيين والايروسيين •

وفى سنة ٨٥١ هـ / ١٤٤٧ م خرج السلطان مراد الثانى بنفسه الى
ألبانيا وأبضى فيها نحو ثمانية عشر شهرا • واستطاع برغم ما أظهره اسكندر
بك ورجاله من البسالة والاستمالة فى القتال أن يستولى على سفيتجـراد
Dibra • وديبرا Sfetigrad • (١)

وكان هنيادى منذ هزيمته الأولى فى معركة وارنه لا يهدأ عن التأهب
والاستعداد لينتقم لنفسه من تلك الهزيمة ، لذلك انتهز هنيادى فرصة
انشغال السلطان مراد الثانى فى حربه مع اسكندر بك ، فحشد جيشا عظيما
لقتاله بعد أربع سنوات من هزيمته فى وارنه أى فى أواخر رجب سنة ٨٥٢ هـ /
أواخر سبتمبر سنة ١٤٤٨ م وزحف هنيادى بجيش كبير يتكون من الألمان ،
وسكان ولاشيا ، وبوهيميا ، والمجر ، وترانسلفانيا ، فلما بلغ ذلك السلطان
مراد الثانى غادر ألبانيا من فوره ، وأسرع للقاءه • وكان هنيادى قد أدخل
فى تقديراته حينما زحف ليقا تل العثمانيين معاونة الصرب ، والألبانيين له ،
إلا أن شيئا من هذا لم يحدث وذلك لأن الألبانيين كانوا مشغولين بـ

(١) سرهنك ، حقائق الأخبار ، ص ٥٠٥ ، محمد فريد ، نفس المرجع ، ص

الحمالات التي كانت تبغتها الدولة العثمانية عليها تباعا ، أما الصرب فكان
السلطان مراد قد تزوج من ابنة أمير الصرب جورج برانكوفيتش فكانت هذه
الزيجة سببا في توثيق التحالف بين الدولة العثمانية وبين الصرب التي
كانت تود أن تتخلص من حكم المجر . وتقابل الجيشان المسلم والصليبي
في سهل قوصوه Kossova . وقيل أن ينشب القتال بين الجيشين
بعثت السلطان مراد الثاني الى هنيادى وفدا ليقاضه في العدول عن
الحرب وسفك الدماء ، ولكن هنيادى أخذته الحزة والصلف ، وظن أن هذا
ضعفا وعجزا من السلطان مراد الثاني على الحرب ، وما لبثت المعركة أن نشبت
بين الجيشين المجرى والعثماني الاسلامي فكانت حربا حامية دامية طيلة ثلاثة
أيام كاملة في شعبان سنة ٨٥٢ هـ / أكتوبر سنة ١٤٤٨ م . وللمرة الثانية
شهد سهل قوصوه انتصارا عظيما ساحقا للعثمانيين ، وكانت المرة الأولى في
عهد السلطان مراد الأول سنة ٧٩١ هـ / سنة ١٣٨٩ م . (١)

أما هنيادى فانه عندما لمح بوادر الهزيمة على جيشه انقلت من بين عساكره
ولاذ بالفرار ، وهام على وجهه ، وكان من نتيجة هذه الهزيمة القاسية فلى
كوسوفا (قوصوه) الثانية أن فقدت الدولة البيزنطية خاصة والدولة الأوربية
عامة آخر أمل في احياء الحروب الصليبية ضد الدولة العثمانية الإسلامية

(١) سرهنك ، حقائق الاخبار ، ص ٥٠٥ ، محمد فريد ، الدولة العلية ،
ص ٥٨ ،

الفتية ، وانقاذ الدولة البيزنطية والقسطنطينية من مصيرها المحتوم ، كما أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التى تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد الدولة العثمانية الإسلامية . وهكذا ضاع أمل الصليبيين الغربيين ومن ورائهم الدولة البيزنطية فى القضاء على الدولة العثمانية الفتية وانقاذ المسيحية الشرقية من الانهيار وذلك بانتهيار وسقوط القسطنطينية الذى بات متوقعا بين لحظة وأخرى .

وفى أواخر السنة التالية لمعركة قوصوه الثانية قصد السلطان مراد الثانى ألبانيا سنة ٨٥٣ هـ / سنة ١٤٤٩ م وحاصر كرويا Kruya وقد صاحبه فى هذه الحملة ابنه محمد الثانى فأظهر من الهمة والنشاط والجلد ما أكسبه اعجاب جنده . ورغم الجهود العظيمة الجبارة التى بذلها السلطان مراد الثانى فقد امتنعت عليه مدينة كرويا ، وأخذ اسكدر بك كلما جن الليل يرهق الجيش العثمانى بهجمات عنيفة متواصلة . واضطر السلطان مراد الثانى آخر الأمر ان ينسحب بجنوده بعد أن فقد منهم عددا غير قليل ، وعاد الى عاصمته أدرنة ليجهز جيشا جديدا كافيا لقمع هذا الثائر ولكنه توفى فى يوم ٥ المحرم سنة ٨٥٥ هـ / ٩ فبراير سنة ١٤٥١ م . (١) ولا شك أن

(١) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٨ ، سرهنك ، نفس المرجع ،
Diehl: op. cit., p. 164. ص ٥٥٥

انتصارات السلطان مراد الثاني في أوروبا قضت على آمال الغرب الأوربي في انقاذ الدولة البيزنطية من قدرها المحتوم الذي كان ينتظرها على أيدي العثمانيين . وكان على السلطان الجديد محمد الثاني بن مراد الثاني أن يحقق حلم المسلمين وأملهم في القضاء على الدولة البيزنطية والاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية وهو موضوع الفصل الرابع .

.....

الفصل الرابع

السلطان محمد الثاني وفتح القسطنطينية

- أحوال الدولة البيزنطية قبل حصار العثمانيين للقسطنطينية .
- استعدادات السلطان محمد الثاني لفتح القسطنطينية .
- موقف القوى الأوروبية من الفتح العثماني للقسطنطينية .
- انتصار الإسلام وسقوط القسطنطينية .

قضت معركة وازنه سنة ٨٤٨ هـ / ٤٤٤ م على آخر آمال الفرس
الأوربي الصليبي في انقاذ الدولة البيزنطية من مصيرها المحتوم على أيدي
العثمانيين المسلمين . وصمم العثمانيون على فتح القسطنطينية عاصمة
البيزنطيين ، ومقل المسيحية في شرق أوروبا بعد أن استعصت هذه المدينة
الحصينة على الغزاة الفاتحين منذ عصر صدر الاسلام . فقد شهد القرون
الاول الهجري القرن السابع والثامن الميلادى حملتين كبيرتين لفتح
القسطنطينية ، وكانت أولى المحاولات الاسلامية الجادة لغزوها عام ٤٩ هـ /
٦٦٩ م ، حيث جهز معاوية بن ابي سفيان رضى الله عنه جيشا عظيما لفتح
القسطنطينية ، وكان الجيش بقيادة يزيد بن معاوية ، وخرج معه من الصحابة
سفيان بن عوف ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ،
وأبوا ب الانصارى ، وسار الجيش الاسلامى حتى بلغ القسطنطينية ، واقتتل
المسلمون والروم في بسالة نادرة ، ولكن الجيش الاسلامى لم يتمكن من فتح
المدينة ، وتوفي ابوا ب الانصارى أثناء الحصار ، ودفن تحت اسوار
القسطنطينية . وانتهى حصار المسلمين للمدينة بعد فشل الحملة ، ولكن
المسلمين ظلوا يحسون بهتاف ابى ايوب الانصارى بهم ، ودعائه لهم بأن
يعاودوا الكرة ، حتى لا يظل جثمانه في ارض العدو . (١) أما الحملة
الثانية فكانت في عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك وذلك سنة ٩٦ هـ
سنة ٧١٤ م ، وكان قائدها مسلمة بن عبد الملك بن مروان الذى عرف بالشجاعة

والقوة ، ووصلت هذه الحملة الى القسطنطينية وحاصرتها ، ولكنها رغم ذلك لم تحقق هدفها المنشود وامتدت الحملة بالفشل بعد ان تفشى المرض بين رجالها . (١)

وهكذا أخفقت جهود المسلمين الاولى فى فتح العاصمة البيزنطية ، ومقر الكنيسة الشرقية الارثوذكسية ، حتى جاء عهد العثمانيين الذين وضعوا نصب أعينهم فتح القسطنطينية ليحققوا ما عجزت عن تحقيقه المحاولات الاسلاميه السابقة ، وليرفعوا راية الاسلام عالية خفاقة ، فى سماء اوروسيا . وتحققت هذه الاملية أخيرا فى عهد السلطان محمد الفاتح . بعد أن مهد له أسلافه من العثمانيين طريق الفتح فى القارة الاوربية .

تولى محمد الثانى (الفاتح) السلطنة فى السادس عشر من المحرم سنة ٨٥٥ هـ ، ١٨ من فبراير سنة ١٤٥١ م وكانت سنة فى ذلك الوقت لا تتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، وكان السلطان محمد الفاتح يملك شخصية فذة حيث بز كل اقرانه منذ حداثة ، وهو يتلقى العلم فى مدرسة الامراء . وأبرز ما عرف عن السلطان محمد الفاتح هو اجادته كثيرا من اللغات المعروفة ، كما كانت ميوله لدراسة التاريخ وغيره من العلوم وانتفع بهذه الدراسة

(١) الطبرى ، الامم والملوك ، المقدسى الحنبلى ، قلائد العقيان ، ورقه ١٤ ، ورقه ١٥ ، مخطوط .

فى معرفة سير الشخصيات الكبرى ذات الشهرة فى ميادين القتال والادارة. (١)
واستطاع السلطان محمد الثانى فى السنة الاولى من حكمه ان يعيد تنظيم
داوهر الدولة ، ومعالجتها المختلفة وخاصة الناحية المالية التى عمد فيها
الى محاربة البذخ والتقليل ايضا من الترف ، كما نظم البلاط السلطانى ،
واهتم بالسجلات الخاصة بالجيش ، وزاد من رواتب الجند ، ثم اتجه
الى حكام الاقاليم فرفع بعضهم الى أعلى المناصب ، واقب المقصرين
واستبدل البعض الآخر ، وقد تم كل ذلك بروح دبلوماسية عادلة مما جعل
الجميع يشنون على قائمته ، ومقدرته . (٢)

وأدرك السلطان محمد الثانى ان المعركة الفاصلة بينه وبين الامبراطور
البيزنطى قد حان وقت وقوعها ، فأصلح امور كل المقاطعات الآسيوية
بقضاءه على الخلافات الداخلية ، وقد هدته لمدة ثلاث سنوات مع
القائد هنيادى المجرى ، وقد معاهدات مع مدينة البندقية ، ومع
أمرء الافلاق ، والبوسنة ، وفرسان الاستارية (القديس يوحنا) فى
رودس ، ومع الحاكم الألبانى اسكندريك ، ومع الجنوبيين وغيرهم . (٣)

(1) Lane - Pool: op. cit., p. 101; Alderson, op. cit., 123.

(2) Alderson: op. cit., p. 123.

(٣) سوريال عليه ، العلاقات ، ص ١٣٧ ، الشناوى ، نفس المرجع ،
ص ٦٣٩ ، كمال الدسوقي ، نفس المرجع ، ص ٣٧

وبدأ السلطان محمد الثاني في بناء قلعة على الجانب الأوربي لمضيق البوسفور ، وتسمى " روم ايلي حصار " ، وهي على ^{بحد} خمسة أميال من القسطنطينية ، في مكان يضيق فيها البوغاز وتقبل تماما قلعة اناضولملى حصار التي بناها السلطان بايزيد الاول على الشاطئ الاوربي . (١) وأراد محمد الثاني من تشييده لقلعة روم ايلي حصار التحكم في هذا الممر عند حصار القسطنطينية والحيولة دون وصول أية مساعدات قد تأتي الى البيزنطيين من البحر الاسود . وأراد السلطان محمد الثاني أيضا عزل الدولة البيزنطية سياسيا ، وعسكريا عن بقية الدول الاوربية .

وتحول موقف الامبراطور البيزنطي قسطنطين الحادى عشر من التماس والتهديد ، الى الخنوع والخضوع ، حينما بنى السلطان محمد الثاني قلعة روم ايلي حصار . وازدادت مخاوف الامبراطور قسطنطين ، وحاول الحصول على معونة من القوى الاوربية المسيحية ، دون جدوى ، لان الدولة البيزنطية قبيل الحصار العثماني للقسطنطينية كانت في نظر القوى الاوربية وتلك تعاني من امراض الشيخوخة ، بالاضافة الى التفكك الناشئ عن الحروب الاهلية ، والصراع حول العرش البيزنطي . (٢)

-
- (١) أومان الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٦٢ ، سوريال عليه ، العلاقات ص ١٣٧ ، نوار ، الشعوب الاسلامية ص ٤٩ .
(٢) سعيد عاشور ، اوربا في العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٦٥٦ ، نوار ، الشعوب الاسلامية ، ص ٣٢

ولم تكن الحروب الاهلية وحدها سببا فى ضعف الدولة البيزنطية ، بل كانت هناك الناحية الاقتصادية ايضا ، والتي يلفت من السوء أن خزانة الدولة كانت تعاني من نقص الموارد المالية رغم الضرائب الباهظة التى فرضتها الدولة على رعاياها ، ولم يقف تدهور الدولة البيزنطية عند هذا الحد بل ان الأباطرة اتجهوا الى الاستدانة ، حتى انهم باعوا جواهر التاج موهنوها ، وانتشرت المجاعات بسبب التدهور الاقتصادى الذى اثار بدوره على قوة الجيش البيزنطى ، لدرجة ان استخدمت الدولة فئات كثيرة من الجند المرتزقة . (١)

ولما أرادت الدولة البيزنطية الاستعانة بدول الغرب الا وهى كانت فرنسا وانجلترا قد انهكها حرب المائة عام . وفى نفس الوقت كانت ألمانيا ممزقة ، لا تستطيع الوقوف على قدميها . ومن اجل ذلك اصبح الامبراطور البيزنطى وحيدا فى مواجهة الجيش العثمانى دون معاونة تذكر من القوى الاوربية المحاصرة . (٢)

ولم يبق امام الامبراطور قسطنطين الحادى عشر الا ان يستغيث

-
- (١) الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٥٦٦ ، عمر توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٢١ ، فيشر ، نفس المرجع ، ق ٢ ، ص ٤٤٢ .
(٢) سعيد عاشور ، اوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٦ ،
Cam. Med. Hist., Vol. 4, p. 695.

بالبابا نيقولا الخامس وينذر به بأنه اذا سقطت القسطنطينية فى يد العثمانيين فانهم سيتجهون بعد ذلك الى ايطاليا نفسها . واعلن قسطنطين للبابا قبوله باتحاد الكيستين ليحصل فى نظير ذلك على معونة البابا مهما كلفته ذلك من ثمن (١) . ووجد هذا العرض من قسطنطين الحادى عشر قبولا من البابا نيقولا الخامس وافد البابا فى سنة ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م الى القسطنطينية وقد يتكون من خمسين رجلا على رأسهم الكاردينال ايزيدور (Isidore) الذى اقام قداسا دينيا على الطريقة الكاثوليكية برئاسة الامبراطور فى كنيسة القديسة صوفيا ، وحضر مراسم الاتحاد ، واقامة الشعائر الامبراطور واعوانه ، الامر الذى اثار الغضب والسخط فى نفوس رجال الدين وعامة الناس فى الامبراطورية الذين كانوا يعارضون مشروع توحيد الكيستين . (٢)

ولما اشتد غضب رجال الدين على هذا التصرف ، كتب احدهم منشورا هاجم فيه مشروع توحيد الكيستين . وترتب على هذه المعارضته

(١) كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٣٦ ، الرشيد ، محمد

الفتاح ، ص ٢٨٧ ، *Mijatovich: The Last Emperor of the greeks p. 45 FF.*

(٢) عزيز سوريال عطيه ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٢٨ ، الشناوى

نفس المرجع ، ص ٦٤٢ ، الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٣٦ ،

الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ٨٨ .

ان الاساقفة البيزنطيين عندما دعاهم الامبراطور ليقدّموا كنوزهم ، وماعدهم
من الاموال لأعداد السلاح للدفاع عن القسطنطينية كانت اجابتهم للامبراطور
هى الاتهام بالهرطقة . ومارضت الكنيسة الارثوذكسية تصرفات الامبراطور ،
لدرجة ان بطريرك الكنيسة الارثوذكسية لوكاس ناتوراس Lucas Natoras
اعلن بصراحة انه يفضل ان يرى عمامة السلطان محمد الثانى فى كاتدرائية
القديسة صوفيا بدلا من ان يرى قبعة البابا يقولوا الخامس بابا روما فى
القسطنطينية (١) .

وهكذا اتضح ان مشروع توحيد الكنيستين قد اسفر عن ازدياد
سخط سكان بيزنطة ، على الامبراطور واعوانه من اللاتين ، ومن اجل ذلك
تبدد حماسهم للدفاع عن عاصمتهم ، ولم يبالوا بمصير مدينتهم مادام
متمسكين بمذاهبهم الارثوذكسى (٢) .

ومث البابا نيقولا الخامس الى حكام ايطاليا ، وفرنسا ، والمانييا
وغيرها لجمع المال اللازم ، واستنهاض هم الملوك والأمراء لنجدة القسطنطينية

(١) الثنائى ، نفس المراجع ، ص ٦٤٢ ، الرشيد ، محمد الفاتح ،

Cam. Hist. of Islam, I, p. 283 F.

ص ٨٨ .

(2) Creasy: op. cit., p. 79.

وأرسل البابا قوة صغيرة من الجنود المحترفين • أما المدن الإيطالية
والإسبانية التي كانت لها علاقات تجارية مع القسطنطينية ، فقد أظهرت
اهتماما كبيرا بأمر القسطنطينية ، فأرسلت بعض القوات للدفاع عنها • وكان
أهم المحاربين في هذه الجماعة القائد الجنوبي المخامر جان جستنيان
(Jean Justinian) الذي وصل في ١٨ المحرم سنة ٨٥٧هـ / ٢٩
يناير سنة ٤٥٣م مع سفينتين حربيين وثلاثمائة من الرجال المختارين
الذين وصلوا إلى القسطنطينية قبل الحصار بقليل (١) •

أما السلطان محمد الثاني فإنه بذل جهدا كبيرا في الاستعداد
والتأهب للحصار ، ودرس الموقف دراسة شاملة فاحصة من جميع النواحي ،
وجمع أحسن قواته الموجودة في أدرنه ، وجيز أعدادا كبيرة من جميع فرق
الجيش ، ولم يأت ربيع سنة ٨٥٧هـ / ٤٥٣م إلا وكانت قواته قد بلغت أوجها
في الاستعدادات ، واكملت معداتها خاصة من المدافع الثقيلة ذات المرمى
البعيد ولم يكتف السلطان محمد الثاني بما لديه من مدافع قوية ، بل عمل
على شراء عدد كبير من المدافع الحديثة التي لم ير مثلها قبل ذلك في أية
حرب سابقة • (٢)

(١) الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ٨٧ ،
Gibbon, Bowen: Islamic Society and the West, Vol. I, p. 177
FF.

(٢) الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٤٣ ،
Creasy: op. cit., pp. 77 - 78.

واستطاع السلطان محمد الثانى ان يعتمد فى جلب هذه المدافع على رجل
مجرى مشهور من أشهر صناع المدافع فى زمانه يسمى أوربان
Uroban وكان هذا الرجل يعمل فى خدمة الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر ،
ولكنه وجد أن قسطنطين لا يعطيه من أثمان بضاعته الا النزر القليل من المال ،
وانتهز السلطان محمد الثانى سخط أوربان المجرى على الامبراطور البيزنطى ،
ووعده بالعطاء السخى ، والجوائز الثمينة ، له ولكل من يعاونه فى حصار وفتح
القسطنطينية ، ولم يكف السلطان محمد بالخافه بأوربان والأغداق^{عليه} بالمطايا ،
والجوائز المجزية ، بل فتح له أبواب خزائنه ، وغمره بأموال كثيرة . (١)

وفى مقابل هذا السخاء من جانب السلطان محمد الثانى ، صنع أوربان
مدفعا ضخما للعثمانيين فكان هذا المدفع موضع اعجاب من العثمانيين ، كما
كان موضع رعب وخنق للبيزنطيين حيث كان وزن الكرة التى يرمى بها هذا
المدفع كما يقال - اثنتى عشر ألف رطل (حوالى ٣٠٠ كيلو جرام) ، وسدى
مرماه اكتر من ميل . ويقال انه كان يلزم لتحريك هذا المدفع الضخم ونقله
من مكان الى آخر حوالى مائة ثور و ٧٠٠ من الرجال ، وتحتاج قذيفة هذا
المدفع لنحو ساعتين حتى يتم اعدادها . ولما كان هذا المدفع بهذا الحجم
والوزن فقد استغرق نقله من أدرنه الى موضعه أمام أسوار القسطنطينية نحو
شهرين ، مع ان الطريق من أدرنه الى القسطنطينية كانت تقطع فى يومين عادة ،

(١) جييون ، سقوط الامبراطورية الرومانية ، ص ٣٤٥ ، ٣٦٨ ، الشناوى ،
نفس المرجع ، ص ٦٤٣ ،
Creasy: op. cit., p. 77.

ولم من استعظام العثمانيين لهذا المدفع ان نسبوه الى السلطان محمد الثانى
واطلقوا عليه المدفع السلطانى . (١) .

ولم تقف عبقرية أوربان واخلاصه للعثمانيين عند تقديم هذا المدفع
وانما صنع عدة مدافع أخرى أدت دورها فى رفع معنويات الجيش العثمانى ،
كما ألقت الرعب فى حامية القسطنطينية . بجانب هذا المدفع كانت هناك
اعدادا كبيرة من البنادق التى كانت ذات فائدة كبيرة فى معاونة الجيش
العثمانى . وأصبحت كل هذه المعدات الحربية من كل نوع تؤدى دورها
فى مواقعها المختلفة . (٢) .

وكان السلطان محمد الثانى وهو يمد الخطة المحكمة لـحـصار
القسطنطينية قد كلف المهندسين من ضباطه برسم المدينة وأسوارها وحصونها ،
كما كلفهم بدراسة مخططات المدينة جميعها ، وتحديد المواقع ، والأماكن
التي سوف توضع بها المدافع والذخيرة ، كما طلب تعيين أماكن لكل فرقة
من القوات العسكرية . وهكذا كان السلطان المجاهد محمد الثانى على جانب

(١) سرهنك ، حقائق الاخبار ، ص ٥٠٢ ، شاكرا الحنبلى ، التاريخ
العثمانى ، ص ٣٦ — ٣٧ ، الشناوى ، نفى المرجع ، ص ٦٤٣ ،
ابوالحسن الندوى ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٦٠

(2) Creasy: op. cit., p. 77.

كبير من الخبرة العسكرية ، والدقة المتفاهية فى تصرفاته ، بحيث لاتمر عليه
صغيرة ولا كبيرة الا بعد دراسة شاملة وتحليل دقيق . ولما انتهى السلطان
محمد الثانى من هذه الدراسة العسكرية ، والمواقع الاستراتيجية ، تبين
له ان الطريق الى القسطنطينية من ناحية البسفور لاتزال مفتوحة حيث كانت
السفن تدخل من هذه الناحية الى المدينة وتخرج فى حرية كاملة . ورأى بثاقب
فكره أن يسرع فى بناء سفن جديدة تقف فى هذه الناحية لمنع تسرب أى سفينة
صليبية تحمل المعدات والموئن للمدينة ، وتحول بينها وبين الوصول الى
الميناء . (١) .

بلغ عدد السفن العثمانية الاسلامية حوالى ٣٢٠ سفينة من مختلف
الاحجام ، ولكنها كانت أقل كفاءة من الاسطول البيزنطى ومع ذلك خشى
البيزنطيون ان تدخل هذه السفن الاسلامية الى ميناء القرن الذهبى ، فسدوا
مدخله فى سنة ١٢/٥٨٥٧ من ابريل سنة ٤٥٣ م بسلسلة ضخمة من الحديد ،
حيث احتمت السفن البيزنطية وراءها . وجهدوا بحراسة الميناء الى البحارة
الجنوبيين . (٢) .

-
- (١) اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٦٣ ، الرشيدى ، محمد
القاتح ، ص ٩٣ .
(٢) سرهنگ ، حقائق الاخبار ، ص ٥٠٧ ، شاكرا الحنبلى ، التاريخ
العثمانى ، ص ٣٧ ، يوسف آصاف ، تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ٤٥ ،
نبيه عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٥١ .

ومعد أن أتم السلطان محمد الثاني استعداداته زحف بجيوشه
الى القسطنطينية ، وحينما وصلت الجيوش العثمانية الى مشارف المدينة وقف السلطان
محمد الثاني ، وخطب في رجاله خطبة بليغة ، حثهم فيها على الجهاد في
سبيل الله ، وصدق القتال ، وقرأ عليهم كثيرا من الآيات والأحاديث النبوية
الشريفة المبشرة بفتح القسطنطينية ، وعرفهم بأنهم سيحصلون على الفخر ،
والنصر ، بالفتح العظيم لمعقل المسيحية ، وان هذا الفتح سيعيد للاسلام
عزته وكرامته ، ويرفع منارته ، كما كان في عهد الخلفاء الراشدين . (١)

ولم يكف ينتهي من خطبة العظيمة التأثير في نفوس جنده . حتى
تمالت صيحات جنوده المسلمين مدوية مجلجلة تشق عنان السماء ، الله اكبر ،
الله اكبر . وكان في طليعة الجيش الاسلامي عدد كبير من كبار العلماء
المسلمين الذين كان لهم دور كبير في رفع الروح المعنوية ، وتعبئة الشعور
الديني واشغال الحماس في قلب كل جندي ، ومن هؤلاء العلماء الذين لهم
التأثير الروحي الكبير في الجند المقاتلة ، الشيخ آق شمس الدين . الذي
اكتشف قبر أبي ايوب الانصاري رضى الله عنه ، والشيخ آق بيق ده ، والمولى
احمد الكوراني . ورفع العلماء الكف الضراعة سائلين المولى عز وجل ان ينصر
الجيش الاسلامي ، ويعز دينه ، ويحفظ كتابه ، وأخذوا يرددون حديثا

(١) الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ٩٣ .

نسب الى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهو يقول " افتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش " (١)

وانطلق طوفان الجنود حتى بلغ أسوار القسطنطينية ، وضرب الحصار حولها • واحكمت الخطط التي استفادها السلطان محمد الثاني من والده السلطان مراد الثاني ، وزاد عليها السلطان محمد الثاني دعم التحصينات ، واعداد فرقة من الجيش أمام الاسوار البحرية •

واستعدت فرق المشاة للقيام برأبها في قذف السهام الى الحائط الحاجز الذي كان يظهر عليه المدافعون عن المدينة من الجيش البيزنطى • كما اعدت المجانيق (٢) على طول الخطوط تحمل قطعاً ضخمة من الصخور لدك الاسوار الحصينة ، حول القسطنطينية • ومن المظاهر التي تدل على

(١) صحيح مسلم ، الجزء الثامن ، شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامى ، ج ٢ ص ٢١٤ ، الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ٩٤ •

(٢) المجانيق أو المنجنقات جمع منجنيق وهى آلة حربية اقذف الاحجار والنقط ، د • نظير حسان سعداوى : جيش مصر فى عهد صلاح الدين أو عبد الرحمن زكى : السلاح فى الاسلام •

اخلاص السلطان محمد الثانى فى جهاده ، والاعلان عن صدق نيته ففى رفع راية الاسلام ، انه كان محافظا على الصلاة فى اوقاتهما ، وكلما حضر وقت الصلاة ، نشر سجادته ، واستقبل القبلة ، وكبر للصلاة ، ومعه جنوده البواسل مكبرين فى صوت كله خشوع مما افزع الاعداء ، ونشر الرعب بينهم . وكلما سمعوا صوت الحق مكبرا به المسلمون ايقنوا ان مصيرهم ومصير مدینتهم قد اصبحت وشيك الوقوع فى ايدى العثمانيين المجاهدين (١) .

ثم اخذ السلطان محمد الثانى يشدد الحصار على القسطنطينية بقواته العسكرية ، وقد اختلف المؤرخون فى تحديد الجنود العثمانيين المحاصرين لمدينة القسطنطينية ، وترددت اقوالهم ما بين سبعين الفا ، ومائة وخمسين الفا ، ومائتين وخمسين الفا ، وثلاثمائة الف مقاتل (٢) . ولا شك ان الذين بالنوا فى عدد الجيش العثمانى قد تأثروا بالنتائج الباهرة التى تحققت فى فتح القسطنطينية ، واعتقدوا ان هذه النتائج لا يمكن تحقيقها الا اذا كان الجيش يحتوى عددا خياليا يصل فى تقديرهم الى ثلاثمائة الف مقاتل ، وانهم بتقديرهم هذا اغفلوا عن عوامل النصر التى كانت كامنة فى الجيش العثمانى ،

(١) أوسمان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٦٣ ،

Creasy: op. cit., p. 79.

(٢) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٥٩ ، سرهنك ، حقائق الاخبار ، ص ٥٠٦ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٤٢ ، الدسوقى ، الدولة العثمانية ، ص ٣٧ .

وهى بمعينة كل البعد عن كثرة العدد ، وهى بطولة الجنود العثمانيين ، وقوة عقيدتهم ، وحرصهم على الموت فى سبيل الله . وانهم بهذه الصفات لم يكونوا بحاجة الى هذه الاعداد الكبيرة من الجند لاسيما وان القوة البيزنطية المدافعة عن القسطنطينية لم يزد عدد هاقى رواية بعض المؤرخين عن تسعة آلاف مقاتل ، ومزيد عدد هم الى اربعين الفا فى الروايات الاخرى . ومن اجل هذه الاعتبارات يتضح ان الرأى الذى يكون قريبا من الحقيقة هو ان عدد الجيش العثمانى لم يزد عن سبعين ألفا ، وذلك بالاضافة الى المقومات الاخرى للجيش الاسلامى وهى قوة العقيدة والتنظيم الادارى والحربى . (١)

وكانت مدينة القسطنطينية أشبه بمثلث متساوى الساقين محاط من كل جانب بالأسوار ، رأسه بارز شرقا فى مياه البوسفور والجانب الشمالى منه واقع على مياه القرن الذهبى ، والجزء الجنوبى منه يطل على بحر مرمرة . أما القاعدة فهى الاسوار الغربية التى تفصل المدينة عن باقى القارة الاوربية . والمدينة من كافة نواحيها محاطة بالأسوار ألا أن أسوار القسم الواقع على القرن الذهبى كانت مهملة بعض الشيء لاعتقاد البيزنطيين بأن مهاجمة المدينة من هذه الناحية بعيدة الاحتمال . (٢)

(١) اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٦٣ ، Creasy: op. cit., p. 79.
(٢) جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثمانى ، ص ١٥٦-١٥٨ ، كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٣٩ .

وكان هناك في الجهة الغربية خطان من الاسوار طولهما أربعة أميال
يمتدان من شاطئ بحر مرمرة الى شاطئ القرن الذهبي ، ويبلغ ارتفاع
السور الداخلى منهما نحو أربعين قدما ، وقد دعم بإبراج ارتفاعها ستون
قدما ، وتبلغ المساحة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدما ، ويبلغ
ارتفاع السور الخارجى نحو خمسة وعشرين قدما ، وقد حصن أيضا بإبراج
شبيهة بإبراج السور الاول وان كانت أصغر حجما . وهذا السور الخارجى
وحد ، كان من القوة والمناعة بحيث يكفى لحماية أية مدينة من مدن المصــر
الوسطى . كما حضر البيزنطيون خندقا واسعا الى جوار السور الخارجى ،
يبلغ عرضه ستين قدما ، وعرضه مائة قدم ، ومعتبر هذا الخندق خط الدفاع
الاول عن القسطنطينية . وللـسور الخارجى لهذه المدينة ابواب كثيرة ، اهمها
باب أدرنه ، وباب القديس رومان ، (Saint-Roman) وباب
المدفع ، والباب الحسكرى الثالث (١) .

أقام السلطان محمد الثانى جنوده تجاه السور الخارجى ، وقسمهم
الى ثلاثة اقسام هى : — القسم الاول وهو اليمينى ، وتتألف من جنود
الاناضول ، بقيادة اسحق باشا ومحمود بك ، ويواجه جزءا من السور ، يمتد
الى نهايته من الجنوب عند بحر مرمرة الى باب القديس رومان . والقسم الثانى
وهو اليسرى ، وتتألف هذا القسم من جنود روملى والمتطوعين من غــر

(١) الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ٩٦ ، محمود زياد ، دراسات فى التاريخ
الاسلامى ، ج ٢ ، ص ٥٣٠ — ٥٣١

الانجليين تحت قيادة قره جه باشا ، ومواجه جزء من السور يمتد من أقصى الشمال عند ميناء القرن الذهبي الى باب أدرنه . والقسم الثالث وهو القلب ، ويتألف من الانكشارية والجنود المختارة ، تحت قيادة السلطان محمد الثاني نفسه ، ومواجه هذا القسم الجزء الاوسط من السور والذي يمتد من باب القديس رومان الى باب أدرنه . ويعتبر هذا الجزء من السور هو أضعف جزء فيه ، ان يقع في وادي نهر ليكوس (Lycus) (١) .

وأقام السلطان محمد الثاني مركزا للقيادة العامة والأشراف على حركات الجند وسير الحصار والقتال ، خلف مركز القلب ، كما أقام عند كل باب مراقبا خاصا ، وعسكر زغرس باشا احد قادة السلطان محمد الثاني مع فرقة من الجند في المرتفعات المشرفة على غلطة لمراقبة الجنود فيها ، ومنعهم من امتداد القسطنطينية بالمرء والعتاد ، ومراقبة الشاطئ الشمالي من القرن الذهبي . وأمره السلطان محمد الثاني أن يقيم جسرا عند نهاية الميناء لتسهيل الاتصال ، ونقل الجنود من احدى الضفتين الى الضفة الاخرى وليتمكن من الاشتراك في الهجوم على المدينة من ناحية البر عند الحاجة . وقد استمر حصار القسطنطينية حوالي ٥٣ يوما متواصلة من ٢٧ من ربيع الاول سنة ٨٥٢ هـ / ٢٠ من جمادى الاولى سنة ٨٥٢ / ٦ من ابريل سنة ١٤٥٣ م - ٢٩ من مايو سنة ١٤٥٣ م . (٢) .

(1) Lane - Pool: Turkey, p. 108 FF.

(٢) جييون ، نفس المراجع ، ص ٣٤٥ ، والصفحات التالية .

وفي يوم ١٦ من ربيع الثاني سنة ٨٥٧هـ / الثامن عشر من ابريل سنة ١٤٥٣م أمر السلطان محمد الثاني ، الذي قاد قلب الجيش ، بالمهجوم على منتصف سور المدينة ، عند وادي نهر ليكوس (Lucus) ، ودام الهجوم أربع ساعات في قتال عنيف مرير . وكان السلطان قد نصب المدافع والمجانيق وأحكم وضعها وتنسيقها امام السور البري ، كما نصبت مدافع أخرى امام باب القديس رومان ولكن القوات البيزنطية المقابلة بقيادة جستنيان ، قائد قوات جنوة استطاعت ان تصد ذلك الهجوم . ودا للمسيحيين أنهم سيتمكنون من المقاومة لمدة طويلة ، خاصة وأنه بعد مضي يومين فقط من هذا الهجوم ، استطاعت أربع سفن قادمة جنوية ، وسفينة يونانية أخرى من خيوس من شق طريقها بالقوة بين الاسطول العثماني ، وتمكنت ايضا هذه السفن من دخول القسطنطينية والانضمام الى المدافعين عنها . وكانت هذه السفن الخمس محملة بالقمح والشعير والنبيد والخضروات ، وبها جنود ومطارة على درجة جيدة من التدريب والمهارة . (١)

وفي صبيحة اليوم الثامن عشر من ربيع الثاني سنة ٨٥٧هـ / العشرين من ابريل سنة ١٤٥٣م أمر السلطان محمد الثاني جزءا من اسطوله بقتلج الخمس سفن المسيحية التي كانت تنساب بسرعة وثبات عبر البسفور . كما قام

(١) محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٦٠ ، الشناوي ، نفس المرجع ، ص ٦٤٤ ، الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ١٠١ ،

Lane - Pool : op. cit., p. 108 FF.

البيزنطيون بزيادة اعداد المدافعين عن الاسوار ، بينما كان العثمانيون مجتمعين على الشاطئ ، يشاهدون هذا التدخل . وركب السلطان محمد الثانى جواده واتجه بنفسه الى حافة الماء لمراقبة الموقف ، لكن السفن المسيحية كانت جيدة التسليح ، محملة بالرجال واقتحمت طريقها بين اعدائها الشجعان من العثمانيين المسلمين الذين لم تمكنهم كفاءتهم من اجادة ركوب البحر والقتال فيه حتى يتمكنوا من صد هجوم السفن المسيحية ، وادى ذلك الى حدوث ارتباك مبللة فى الاسطول العثمانى حتى أخذت سفنهم تصدم بعضها ببعض ، وارتفعت أصوات البيزنطيين بالفج من أعلى اسوار المدينة . (١)

وأعطى هذا النصر الموقت الذى حققه هذا الاسطول الجنوى الصغرى دفعة قوية من الثقة بالنفس للجنود الذين يدافعون عن القسطنطينية . وما كان السلطان محمد العثمانى بالرجل التى تثنيه تلك المقاومة المهزلة عن عزمه ، أو تحرقه عن مشروعه ، لذلك حاولت السفن العثمانية اكر من مرة النفاذ الى القرن الذهبى للسيطرة عليه ، وتحطيم هذه السلسلة الضخمة القائمة عند مدخله ، ولكن السفن الاسلامية العثمانية لم توفق . وهنا لاحظت فكرة عسكرية جديدة امام مخيلة السلطان محمد الثانى وهى نقل السفن العثمانية من مرساها فى البسفور الى القرن الذهبى برا . واختمرت الفكرة فى رأس السلطان

(١) شاكرا الحنبلى ، التاريخ العثمانى ص ٣٧ ، كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٤٠

محمد الثاني حيث قرر تسيير السفن الحربية على اليابس مسافة ٣ أميال ، وقد أمر مهندسية بغغطية الأرض التي يراد سحب السفن عليها باسطوانات من خشب الصنوبر ، المدهون بالشحم حتى يمكن سحب السفن عليها ، وكان عدد هـا يقرب من سبعين سفينة • واختار السلطان محمد الثاني الخفاف من السفن ، وأمر بدفعها على هذه الاسطوانات الخشبية المدهونة بالشحم ونشرت أشرفها وجرها الرجال بقوة فسارت على الاخشاب ، ونزلت هذه السفن على الجانب العلوى من القرن الذهبى حيث المياه الهادئة والمنطقة ضيقة ووجد الاسطول المكون من كل من الشاطئين • وهكذا أصبحت واجهة المدينة البحرية الداخلية فضلا عن واجتها الخارجية محاصرة بالعثمانيين • (١)

واستيقظ اهل القسطنطينية فى صباح يوم ٢٠ من ربيع الثانى سنة ٨٥٧هـ / ٢٢ من ابريل سنة ١٤٥٣م على صيحات المسلمين المدوية ، وهتافات المتصاعدة ، وتكبيراتهم القوية عقب نزولهم داخل الميناء • وزاد من أهمية هذه العملية الحربية ، ما أحدثته من رعب وفزع فى صفوف سكان القسطنطينية ، ومابعثته من ثقة فى صفوف الجند العثمانيين • وبدأت تلك

(١) سر هنك ، حقائق الاخبار ، ص ٥٠٧ ، سوريال عطية ، العلاقات ، ص ١٣٩ ، أومان ، نفس المرجع ، ص ٢٦٤ ، يوسف آصاف ، نفس المرجع ص ٤٥ ، نبيه عاقل ، نفس المرجع ص ٣٥١ ، سلوك سبيل الرشاد للسلطان مراد ، مجهول المؤلف ، ورقه ١٨ ، مخطوط ،

The Cam. Hist. of Islam, Vol. I, pp. 295 - 296; Greasy: op. cit., p. 81.

السفن فور وصولها الى الميناء في قذاف المدينة وأسوارها بوابل من القذائف الثقيلة (١) .

كما أمر السلطان محمد الثاني مهندسيه ان يبنوا الى جانب هذه السفن جسرا عائلا صنع من البراميل والصناديق الخشبية ، وشد بعضها الى بعضها بالجمال الضخمة ، وثبتت عليها الألواح الخشبية . ولما كانت نهايته القريبة قريبة من زاوية الساحل ومن حائط الميناء ، نصبت عليه المدافع لقف ذلك الجانب من اسوار القسطنطينية والمطل على الميناء وتهديده ، وذلك أصبحت السفن البيزنطية وغيرها هناك محاطة بالسفن الاسلامية من الجانبين ، وادركها الفزع والذعر الشديد . وحاول القائد البيزنطى جستنيان — ولكن دون فائدة يحاونه الجنويون والاسطول اليونانى — ان يدمر الجسر ويحرق الاسطول العثمانى . كما حاولت البنادقة أيضا بدون نجاح ، ولهذا اضطر الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر أن يضع فى هذا الجانب من السور عددا كبيرا من الجند لمراقبته (٢) .

(١) سر هنك ، حقائق الاخبار ، ج ١ ، ص ٥٠٧ ، عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٣٩ ، اومان الامبراطور البيزنطية ، ص ٢٦٤ ، يوصف آصاف ، تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ٤٥ ، سلوك سبيل الرشاد ، مجهول ، ورقه ١٨ .

The Cam. Hist. of Islam, Vol. I, pp. 295-296.

(٢) عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٣٩ ، الرشيدى محمد القاتح ، ص ١٠٧ ، Greasy: op. cit., p. 82.

ولما اشتدت ربحى الحرب ، وملك العثمانيون زمام الموقف ، وأحكموا
الحصار حول مداخل المدينة ، بدأ أهل القسطنطينية يشعرون بتناقص
الطعام . وفى أوائل مايو سنة ١٤٥٣ م اضطركثير من الجند المسيحيين
ان يتركوا مواقعهم ليبحثوا عن غذائهم ، وقذاء عائلاتهم ، فكان ذلك أول الوهن ،
وبداية الانهيار ، حيث اشتد بهم القلق وخاصة بالامبراطور البيزنطى الذى
اسقط فى يده ، وغابت كل آماله لعدم وصول نجده اليه من أوروبا . وفى ذلك
الحين شن العثمانيون هجوما عنيفا على اسوار القسطنطينية ، واشتد الضيق
والكرب على المحصورين . كذلك شددت السفن العثمانية ضغطها فى هجومها
على ميناء القرن الذهبى المرة تلو الاخرى ، كما نشطت الحاميات البحرية فى
اطلاق مدافعها من البر . وفى نفس الوقت كان السلطان محمد يواصل
المهجمات ، واطلاق القذائف فى البر والبحر ، على غير انقطاع ليلا ونهارا ،
حتى انهك فيها الحاميات البيزنطية وجعلهم لا يستطيعون الراحة بعدما اجتاحتهم
حالة يأس شديدة . وكان السلطان محمد الثانى قد قسم عساكره المجاهدين
الى فرق تحت قيادة أمهر ضباطه . ونادى مناديه فى المعسكر بأن أول من
يتسلق سور المدينة من المعسكر سوف يوليه السلطان ولية من أغنى الولايات ،
وينعم عليه بالعطايا الوفيرة ، والاعطامات الجزيلة (١) . واخذ يخطب
فيهم ويستغثهم ، فسار المتطوعون امام المعسكر يحلون الأحجار والاشغال

(١) سرهنگ ، حقائق الاخبار ، ص ٥٠٩ ، الرشيدى ، نفس المرجع ،
ص ١١٣ ، الشناوى ، نفس المرجع ص ٦٤٧ .

ملئت
مع أكياس بالطين والرمل ليلقوها بالخندق لتكون كالجسر يعبرون عليه لامتلاك
المدينة . ولما صدر لهم الأمر بالسير اندفعوا كالسيل الجارف وصاروا يلقيون
مبايدهم بالخنادق ، فانصبت عليهم من أعلى السور نيران الأعداء وقتل
منهم العدد الكثير ، واطلم الجرم من دخان المدافع ، وقابلتهم سهام
المدافعين . كل ذلك والجيش المنتظم لم تبد أقل حركة ، حتى تصيب
عسكر الإمبراطور البيزنطى ، فعند ذلك تحركت تلك الفرق وزحف على
الأسوار بقلوب لا تهاب الموت ، ولما منهم قلعة شامخة من الخشب على عجل
يجرها الجند مكسوة من الخارج بمواد كيميائية خاصة على الدوام لتضيق تأثير
النيران التى كان يقذفها المحاصرون . وكانت تحمل فى أسفلها المتراب
والأحجار ، والأخشاب لرذم الخندق ، وفى أعلاها سلا من الجبال
عصبت فى أطرافها كالأليب يلقونها على أعلى السور فتشرب فيه ليمر عليها الجند
كالقنطرة ، بينما كان الجند الآخرون يصرون نبالهم الى كل من يطل برأسه
على السور من المدافعين . وشرع النقيبون فى ثقب الأسوار ، واشتبك القتال
وقويت نيران الأعداء بعد ضعفها ، وفتحت مدافع العثمانيين أفواهها
ورغم ذلك فلم يكن بوسع المدافعين استعمال مدافعهم الكبيرة من فوق الأسوار
لان اهتزازها عند الانطلاق كان يزلزل السور ويهدمه . (١) وهال أهمل
القسطنطينية أمر هذه القلعة الجبارة ، وقال المؤرخ البندقي باربارو الذى
شهد هذه القلعة بنفسه " لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على ان يصنعوا

مثل هذه القلعة لما صنعوها فى شهر ، وقد صنعها المسلمون فى ليلة واحدة بل فى اقل من اربع ساعات (٢٠) ومع ذلك فقد استطاع الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر تركيز الضربة بالنيران على القلعة واحراقها فى النهاية .

ومضى على الحصار المثنى للقسطنطينية سبعة أسابيع ، وهذا الحصار قائم على قدم وساق ، حتى بدأت اثاره تظهر ، اذ دمرت أربعة من الابراج الكبيرة للمدينة ، وحدثت ثغرة كبرى قس حائط المدينة قرب بوابة سانت رومان ، وامتلاً الخندق بالانقاض بعد أن كلت ايدى المصورين عن رفعها . واعتقد السلطان محمد الثانى أن الميعاد قد حان للهجوم الاخير على القسطنطينية ، فارسل آخر اذار الى الامبراطور البيزنطى قسطنطين للتسليم قبل أن يراق المزيد من الدماء . مدت الروح الكريمة ، والمعاملة النبيلة ، التى ابدتها السلطان محمد الثانى من هذا الانذار ، فقد بعث رسولا الى الامبراطور البيزنطى يخبره بأنه ان سلم المدينة بغير قتال ، فان السلطان سيمنح جميع الرعايا الحرية التامة ، ولا يتعرض لهم فى شىء اصلاً ،

(١) انظر سر هنك ، حقائق الاخبار ، ص ٥٠٩ ، الشناوى ، نفس المرجع ،

ص ٤٧ ، ٦ ، Greasy: op. cit., p. 82.

وهب الامبراطور بلاد المورة ليكون اميرا عليها ، فلم يقبل الامبراطور اليزنطى
هذا العرض من السلطان العثمانى ورد ردا غير كريم ، ونسى أن يصير
مدينته قد تقرر بالفعل ، واصبح وشيك الوقوع . (١)

فى مساء ١٨ من جمادى الاول سنة ٨٥٧هـ / ٢٧ من مايو سنة ١٤٥٣م
أوقد الجنود العثمانيون النيران والمشاعل والقناديل ، واشعلت الشموع على
رءس الرماح حول معسكر المسلمين ، وعالت صيحاتهم وهم يهتفون فرحين
بأعلى صوتهم " لا اله الا الله " . ودقت الطبول ، ونفخ فى الابواق ،
وارتفعت الاناشيد الحماسية . واخذ فريق من الشيوخ والعلماء ينشدون القصائد
التي تثير الحماس ، وتقوى الروح المعنوية ، ويستغيثون بالخالق سبحانه
وتعالى ليهبهم النصر وعلى راية الاسلام . وامضى السلطان محمد الثانى
اليوم التالى ١٩ من جمادى الاولى سنة ٨٥٧هـ / ٢٨ من مايو سنة ١٤٥٣م فى
اكمال استعداداته الاخيرة ، فطاف بالسور مرة اخرى ليتعرف جيدا هو وجنوده
مناطق الضعف فيه .

وعاد السلطان محمد الثانى الى خيمته ودعا اليه كبار رجال جيشه ،
واصدر اليهم التعليمات الاخيرة قائلا : " اذا تم لنا فتح القسطنطينية
تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزه من معجزاته ، وسيكون من

(١) حقائق الاخبار ، ص ٥٠٩ ، عبد العزيز نوار ، الشعوب الاسلاميه ،
ص ٥٠ - ٥١ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٤٧ - ٦٤٨

حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير ، فأبلفوا المساكين
فردا فردا ، ان الظفر العظيم الذى سنحرزه سيزيد الاسلام قدرا وشرفا ،
ويجب على كل جندى ان يجعل تعاليم شريعتنا الشرا^ء نصب عينه فلا يصدر
عن احد منهم ما يجافى هذه التعاليم ، وليتجنبوا الكائنات والمعابد ولا يمسه
بأذى ، وان يتركوا القس والضعفاء ، والمعزة الذين لا يقاتلون (١) .

أما فى القسطنطينية فقد قطع البيزنطيون كل أمل فى مجيئ^١ النجدة
الاوربية من الغرب ، ووضعوا كل املهم فى هذا السور الضخم الذى لستم
تنقطع عنه المدفعية المشمانية طوال تلك الايام الماضية ولمدة سبعة اسابيع
منذ لك ارهقت اصحاب الكثير من المحاصرين داخل المدينة وفروا الى معسكر
المسلمين لينشدوا لانفسهم الامن والسلامة ، ولقوا فى المعسكر الاسلامى
كل ترحيب وأمن . كما التجأ ايضا الى المعسكر الاسلامى فيمن التجأ^٢
الراهب بترو فى اثمثة من اصحابه ، فاکرمهم المسلمون ، واحسنوا معاملتهم
وكان لذلك وقع طيب فى نفس الراهب وشرح الله صدره للاسلام فاسلم^٣
وعرف منذ ذلك الحين بمحمد بترو وكان خير معين للمسلمين فى الهجـ^٤
العالم على القسطنطينية ، حيث دلهم على عسرات المدينة وقد اجزل لـ^٥
السلطان محمد الثانى العطاء (٢) .

(١) محمود زيادة ، دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ج ١ ، ص ٤٨١ ،

الرشيدي ، محمد الفاتح ، ص ١٢٦

(٢) الرشيدي ، محمد الفاتح ، ص ١٢٢ .

وكان السكان البيزنطيون فى القسطنطينية يتخلّبون على الفزع بالتمسك بالاعتقاد فى اساطيرهم الدينيه التى تقول بأن القديسين والملائكة سيساعدون هؤلاء الذين لا يستطيعون مساعدة انفسهم . ونشب النزاع ، والشقاق بين اليونانيين واللاتين المدافعين عن القسطنطينية ، فعندما طلب جستنيان القائد الذى كان يتولى الدفاع عن الثغرة الكبرى عند بوابة سانت رومان ، مزيدا من المدافع من الدوق نوتاراس الذى كان له الاشراف على التموين العام رفض ذلك بحجة عدم ضرورتها . (١)

وفى ليلة ٢٠ من جمادى الاولى سنة ٨٥٧هـ / ٢٩ من مايو سنة ١٤٥٣م أدى الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر القداس فى كنيسة آيا صوفيا ، ثم توجه الى القصر الامبراطورى الكبير حيث قضى فترة من الزمن فى انحاء القصر حيث حكم اسلافه قرونا عدة ، وعندما خرج قسطنطين من القصر سأل الناس المغفرة ، وطلب منهم الحفوع عن اى عمل قد يكون عمله حيا لهم . ووسط الدموع ، والصلوات التى عقدها الجميع ، ذهب آخر القياصرة البيزنطيين الى ساحة القتال . (٢)

أما فى المعسكر العثمانى فكان كل شىء يعد للاستشهاد فى سبيل المولى عز وجل ، حيث كانوا مؤمنين بالاسلام عن عقيدة ، كما كانوا

(١) الرشيدى ، محمد الفتح ، ص ١١١-١١٢.

Creasy: op. cit., pp. 82-83.

(2) Creasy: op. cit., p. 83.

مؤمنين بسلامة الهدف وموجب طاعة سلطانهم فكانوا يتطلعون الى الشهادة
فى تواضع ، فرحين بوعده الله ، وما اعد لهم من نعيم مقيم فى الجنة •

وهكذا كانت القوات العثمانية تعلم ان نعيم الآخرة قبل الدنيا لمن
نصر دينه وجاهد فى سبيله وحاز الشهادة • ومن وراء هذه الاحاسيس
كانت مواظبة العلماء تعرض على مسامع المجاهدين سيرة المجاهدين من اصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين سقطوا من قبل تحت أسوار هذه
العاصمة • ومن بين هؤلاء المجاهدين جند الله الانكشارية الذين كان السيف
سلاحهم • والاسلم دينهم وعقيدتهم • وقبل المعركة استعدوا للشهادة
فذهبوا يتطهرون ومسجدون لرئيسهم فى صلاة خاشعة ، يذكرونه فى ايمان
عميق بعدما ظهرت نواياهم •

وما كادت الساعات الاولى من يوم الثلاثاء الموافق ٢٠ من جمادى
الاولى سنة ٨٥٧هـ / ٢٩ من مايو سنة ١٤٥٣م تنشر نورها على القسطنطينية
حتى اعطيت الاشارة بدق الطبول ، والبرقات العثمانية اذ انا بيد المعركة ،
والمهجم الشامل ، فتعالت التكبيرات ، وجاوت اصوات المهللين ، والمكبرين
فى البر والبحر مع دقات الطبول ، وههيل الخيول ، وجلبة الزحف المسكرى ،
بينما كان السكون الحزين يخيم على مدينة القسطنطينية • وتتابع وشوب
الجنود العثمانية على موجات تتلوها موجات متلاحقة تدق اسوار المدينة ،
ولاسيما ان السلطان محمد الثانى قد أمر بتركيز المهجم على الجزء الواقع

بين (سانت رومان) في الجنوب ، وباب أدرنه الشمالى ، حيث كان هذا الجزء من السور قد أصابته قذائف المدافع العثمانية فهدمت منه جزءا كبيرا . وحاول قائد البيزنطيين جستينان ان يقيم المتاريس في الجزء المتهدم أملا في تحصينه . (١) .

وتحارب الاسطول العثمانى مع القوات البرية فاخذ يضرب التحصينات المتعددة على طول الميناء . وجعل السلطان محمد الثانى جنوده يقاتلون في مناطق ثلاث ، وعلى ثلاثة أقسام : القسم الاول : كان مؤلفا من جنود الروملى والمتطوعين الحديثى العهد بالقتال وكان هؤلاء الجنود من اجناس مختلفة . وتقدم هؤلاء الجنود الى الامام حتى صاروا قرب السور بحوالى مرمى سهم تقريبا ، وعندئذ توقفوا عن السير ، واخذوا يقذفون المدافع بالسهام والنبال . ثم اندفع تحت هذا الوابل من القذائف الفتاك كى يحرر من المهاجمين نحو سور المدينة ، واقاموا عليه السلا لم لتسلقه . وكان المدافعون اسرع منهم فقلبو هذه السلا لم بمن عليها وقذفوهم بالصخور الضخمة .

(١) عزيز سوريال عطيه ، العلاقات ، ص ١٣٨ ، أومان ، نفس المرجع ،

ص ٢٦٥ ، Greasy: op. cit., p. 83.

(٢) سرهنك ، حقائق الاخبار ، ص ٥٠٩ ، عزيز سوريال عطيه ، العلاقات ص ١٣٨ ، نبيه عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٥٢ .

واستمر القتال على هذا النحو لمدة ساعتين قتالا عنيفا بين الجانبين ، كان السلطان محمد الثانى يرقبه من فوق صهوة جواده ، وكان يدرك تماما بأس وشدة المدافعين عن المدينة ، وكذلك حسن موقعهم الاستراتيجى بالنسبة للمهاجمين . ويبدو أن السلطان محمد كان يريد من وراء هذه المهجمة — للقسم الاول من قواته — ارهاق المحصورين ، وانهاك قواهم ، واضعاف روحهم ومعنوياتهم وتبديد طاقتهم ، قبل ان يضربهم الضربة القاضية ، والاخيرة . (١)

وبعد ان استمر القتال ساعتين دبر السلطان خطة جديدة عمد فيها الى سحب قواته الباقية خلف الذين ارحقوا ليحل محلهم القسم الثانى من الجيش وهم الجنود وقوات الاناضول . وذن المدافعون عن القسطنطينية ان المسلمين يئسوا من الحصار وانسحبوا الى غير رجعه . لكنهم فوجئوا قبل ان يتنفسوا الصعداء بهجوم أشد بأسا ، وحكة من الهجوم الاول ، فهو هؤلاء الجنود كانوا أحسن تدريبا ، وتنظيما ، وأكثر مراسا فى القتال . وكان أشد الهجوم عند بوابة سانت رومانوس . وأدرك الامبراطور البيزنطى قسطنطين خطر الموقف هذا ، فاحضر الى هذا المكان المزيد من المدافعين ، وآلات الرمي والقذائف . ونشط جيتسنيان وجنوده الشجعان بدروعهم ، وقاموا

(١) سر هنك ، حقائق الاخبار ، ص ٥٠٩ ، الرشيدى محمد الفاتح ، ص ١٣٣

هذا الهجوم العنيف مقاومة المستميت ، وصبوا نيرانهم وقذائفهم المحرقة على العثمانيين ، وقلعوا السلا لم يتساقبها من المسلمين ، الا ان هذا كان له اثر قوى على العثمانيين فزادت حماسهم واستماتوا للوصول الى أعلى السور ، واستدلاخ بعضهم الوصول فعلا الى السور . وذلك انتقلت ارض المعركة الى أعلى اسوار المدينة ، حيث التحم المهاجمون ، والمدافعون فى صراع جسدى مميت ، وتردد النصر بين الفريقين ، وقتل الكثير من العثمانيين من كرة السهام ، والقذائف ، ولذلك أمر السلطان محمد الثانى بسحب جنوده واستعمال المدافع مرة أخرى . ولغبط من فى العاصمة وعلى رأسهم جستنجان للمرة الثانية بانسحاب العثمانيين وارتفعت صيحات الفرح والنصر من جانب السور . (١)

ولم يمهل السلطان محمد الثانى البيزنطيين ، فلم يكد يسحب جنوده البواسل حتى انطلقت المدافع مدوية مرة اخرى ، ولكنها اشد تدميرا . وجاء دور القسم الثالث من جنود السلطان محمد الثانى وهم الانكشارية ، فقد كانوا اكر حكة ، وتدريباً ، وسالة فهم خير الجند العثمانية . وكانت خطة الهجوم هذه المرة اكر احكاماً ، وتنفيذها اكر دقة وانتظاماً ، ومن ورائهم كان الشيوخ والعلماء يشجعونهم ويستحثونهم على صدق القتال

والجهاد • ووصل السلطان محمد الثاني بنفسه الى حافة الخندق ، وهناك أمر الرماة والنبالة بأن يملأوا المدافع بالبيزنطيين بالسهم والنبال • وتحت هذا الهجوم المكثف زحف الانكشارية حسب الخطة الموضوعة (١) •

وحقق وليس القتال ، وبلغ اقصاه من العنف لاسيما عند بوابة سانست رومانوس وباب ادرنه • وتقدم احد الانكشارية الشجعان وكان يدعى حسن الهاد (طولوماتلى) واندفع هذا الفدائى المجاهد ، ومعه ثلاثون من زملائه المجاهدين ليحتل بقايا أحد الابراج المحطمة والتي تسيطر على الثغرة ، واستطاعوا الوصول اليها رغم القذائف البيزنطية المميتة التي انهمرت عليهم من فوق السور لتثنيهم عن عملهم هذا ، ولكنها كانت تزيدهم عنادا لاسيما بعد ان صرفت ثمانية عشر مسلما منهم • وتسلى حسن الهاد رمية رفاقية المجاهدين السور واسرع اليهم المدافعون ونشب بينهم صراع دام وعنيف ، وظهر حسن الهاد ، ورفاقه بسالة منقطعة النظير ، اشاد بها المؤرخ البيزنطى فرانتزس (Frantzes) الذى شاهدها بنفسه ، وذكر ان هذا الجندى المسلم الشجاع أصيب بقذيفة قوية اوقمته أرضا ، ولكنه وقف على ركبتيه ، وظل يقاتل فى حماس شديد • وشكل الصليبيون عليه فخر صريحا بعد أن فتح لاخوانه المسلمين المجاهدين طريق الوصول الى القسطنطينية واقحامها من اعلى السور • وزادت بطولية حسن الهاد من حماس المسلمين ،

(١) اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٦٥ ، عمر توفيق ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٢٠

فضاعفوا جهدهم وقوتهم في الهجوم • ونتيجة لهذا وجه احد الجيوش
العثمانيين طعنه الى جستنيلان قائد الجيش البيزنطي اصابته بجرح عميق
اضطره لترك موقعه في المعركة ليموت على سطح سفينته في الميناء • فكان
وقع الخسارة بموت جستنيلان شديدا • ولما لاحظ قادة الانكشارية ضعف
المقاومة في هذا الامر الذي تركه جستنيلان عززوا هجماتهم لاقتحام هذا الممر
وزاد الهجوم الانكشاري عنفا وقوة • وارتقى كثير منهم انقاض السور وثبتوا اقدامهم
في هذه المنطقة • (١)

واشترك السلطان محمد الثاني بنفسه في هذه المرحلة الاخيرة من المعركة
فاجتاز الخندق بحصانه • وأخذ يدير القتال بنفسه • وتأكد من سقوط
القسطنطينية • وأخذ يحبس جيشه ويفرهم بكل الحوافز المعنوية والمادية
فيشعل الحماس الديني بواسطة رجال الدين والعلماء • وأعلن السلطان محمد
الثاني عن مكافآت سخية لكل من يظهر بطولات عسكرية في اقتحام المدينة • (٢)

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى انطلقت صيحات عالية مدوية من الجبهة

(١) اومان ، نفس المرجع ، ص ٢٦٥ ، الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ١٣٥ ،
عمر كمال توفيق ، نفس المرجع ، ص ٢٣٠ ، Lane - Pool: op. cit.,
Creasy: op. cit., p. 84.

(٢) سرهنك ، حقائق الاخبار ، ج ١ ، ص ٥٠٩ ، محمد فريد ، الدولة
العالية ، ص ٦٠ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٤٧ - ٦٤٨ •

الشماليه للسور ، ما لبثت ان سرت في جميع انحاء المدينة ، وهى تدوى : دخل العثمانيون المسلمون المدينة . والتفت الابراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر ، فاذا بالاعلام العثمانية ترفرف على بعض الابراج القريبة من باب ادرنه . وكان يقود القوات العثمانية فى هذه المنطقة القائد العثمانى المجاهد قره جه بك الذى استطاع زعزعة المدافعين عن اماكنهم ، ووثبت جنوده على الانقاض المتراكمة للسور الى جنوب هذا الباب ، وتمكوا من قتل قائد الحامية البيزنطى ومحقتل قائد الحامية البيزنطى ، انهارت مقاومة المدافعين عن هذا الموقع فولوا الادبار ، ودخل العثمانيون القسطنطينية .

ولما رأى الابراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر ، ان كل شىء قد انتهى ، لم يجد امامه الا الحفاظ على شرفه فأقائد يتحتم عليه الموت فى الميدان . وعاجلة احد الجنود المسلمين بضربة سيف قاتله غر صريحا على اثرها . وزاد ذلك من فزع سكان القسطنطينية .

أما عن القتال الدائر من جانب البحر فقد اخذ العثمانيون يناجزون المدافعين وذلك من فوق سفنهم الراسية فى بحر مرمرة ، والقرن الذهبى ، وظلوا على ذلك الى أن رفعت الاعلام العثمانية فوق الابراج القائمة على السوربرى . وعين رآها المدافعون خارت قواهم ،

فمنهم من استسلم ، ومنهم من فر يطلب النجاة مع الفارين . (١)

وفى ظهر يوم الاربعاء ٢٠ من جمادى الاولى سنة ٨٥٣هـ / ٢٩ من مايو سنة ١٤٥٣ دخل السلطان محمد الثانى الذى لقب بالفتح المدينة من البوابة الرئيسية سانت رومانس وهو لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره فخلد بذلك اسمه بين عظماء الفاتحين . ولم يدمر السلطان محمد الفاتح المدينة ، ولم يقتل اهلها كما فعل الصليبيون والمغول من قبل فى المدن التى قاومتهم ، وانما اظهر السلطان محمد الفاتح تسامحا منقطع النظير ، فقد أمر جنده بوقف القتال ، وامام الباب الرئيسى لكنيسة القديس صوفيا Sainte Sophia ترجل السلطان محمد الفاتح عن جواده ، ودخل القبة فى ايا صوفيا ، والتفت السلطان محمد الفاتح الى احد العلماء يأمره بصعود المنبر ، وان تقرأ هناك صيغة التشهد الاسلامى ، وهكذا دوى صوت الحق جل وعلا " الله اكبر الله اكبر اشهد الا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله " . (٢)

-
- (١) سرهنك ، حقائق الاخبار ، ص ٥٠٩ ، محمد فريد ، الدولة العلية ، ص ٦١ ، الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٤٨ ، الدسوقي ، الدولة العثمانية ، ص ٤٤ ، يوسف آصاف ، تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ٤٥ ، عبد القادر اليوسف ، نفس المرجع ، ص ١٨٤ ، عمر توفيق ، نفس المرجع ص ٢٣٠ ، نبيه عاقل ، نفس المرجع ، ص ٣٥ .
- (٢) فريدون بك ، منشآت السلاطين ، ص ١٣٧ ، يوسف المقدسى ، قلائد العقيان فى فضائل آل عثمان ، مخطوط ، ورقة ١٤ ، البكرى ، المنح ، ورقة (٥) ، او مان ، نفس المرجع ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ،

وأخذ الموعظون الذين كانوا يسرون في ركاب السلطان محمد الفاتح أيضا يؤمنون للصلاة . ولما فرغ الموعظون من آذانهم المدوي ، وصعد السلطان محمد الفاتح الى مذبح الكاتدرائية وادى الصلاة شكرا لله الواحد القهار اذا بنا بتحويلها الى مسجد . واطلق على مدينة القسطنطينية اسلابول Islamboul أى عاصمة الاسلام . (١)

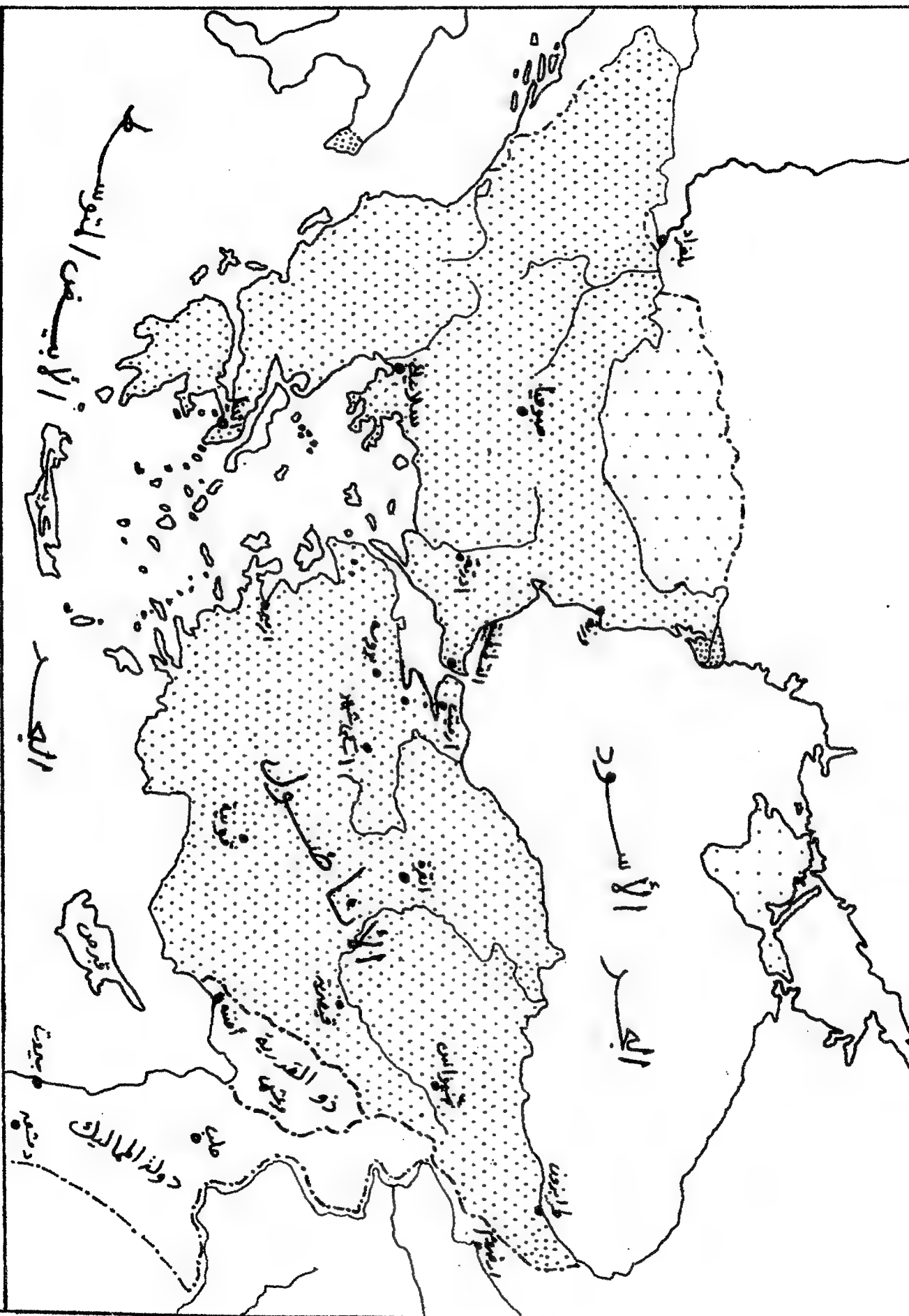
وهكذا قدر للمدينة التي شادها قسطنطين الاول ان تطوى آخر صفحاتها في عهد سمي قسطنطين الحادي عشر . ومن المفارقات حقاً ان المدينة التي جعلها قسطنطين رمزا للامبراطورية المسيحية ، أصبحت منارا اسلاميا ، ومنطلقا لتوجيه الدعوة الاسلامية على يد العثمانيين المجاهدين الى جهات أوروبا الشرقية . فقد حقق العثمانيون ما عجز عن تحقيقه المسلمون الاوائل . واكملوا بذلك ما بدأه السلف الاسلامي .

وسلك السلطان محمد الفاتح نحو أهل القسطنطينية سياسة التسامح والرفقة ، فأمر جنوده بحسن معاملة الاسرى ، وافتدى السلطان محمد الفاتح عددا كبيرا من كبار الاسرى بماله الخاص . ومنح السلطان محمد الفاتح أهل جنوة من سكان حي غالطة بالقسطنطينية شروطا مناسبة للصلح ،

(١) اومان ، نفس المرجع ، ص ٢٦٦ ، الشناوي ، نفس المرجع ، ص

[١٤٥١ - ١٤٨١ م]

الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الثاني



لانهم التزموا الحياد أثناء الحصار ، فضمن لهم حرية العيش بأمان لقضاء تسليمهم اسلحتهم جميعا ، كما ضمن لهم حرية التجارة ، مقابل اداء الضرائب والكوس التي فرضت عليهم . (١) كما اعطى السلطان محمد الفاتح لكبار رجال الدين المسيحي حرية دينية كاملة بل زاد من سلطانهم بأن وكل اليهم امر القضاء المدني ، والفصل في القضايا الخاصة بالاحوال الشخصية للمسيحيين من رعايا كنيستهم . وبعد ثلاثة ايام من فتح العاصمة ، أمر السلطان محمد الفاتح بانتخاب بطريرك جديدا ، وفاز بالمنصب البطريرك جناد يوس Jennadius وهو أحد رجال الكنيسة الارثوذكسية المشهورين وقد تمت مراسيم تنصيبه للكرسي البابوي في احتفالات ضخمة ، ونظّم البيزنطيون من سكان اسلا مبول بعين الرضا للسلطان محمد الفاتح القائد المسلم . وعلى هذا فقد رجع كثير من اليونانيين الفارين الى العاصمة اسلا مبول بعدما شاهدوا تسامح السلطان محمد الفاتح وعده ، وقد تمتعوا في ظل الحكم العثماني بالحرية الكاملة في ظل الدولة العثمانية الاسلامية الكبرى . (٢)

وكان من نتائج فتح القسطنطينية تحولها من معقل المسيحية الحصين في الشرق الاوربي الى عاصمة اسلامية ، فكانت منبع التسامح الاسلامي ،

(1) The Cam. Hist. of Islam, Vol. I, pp. 295-296.

(٢) الشناوي ، نفس المرجع ، ص ٦٥٢ - ٦٥٣ ، الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ١٤٥

وقاعدة الفتوح الاسلامية في اوربا المسيحية حتى بات العثمانيون يهددون
بفتح روما ، والوصول الى الكرسي البابوي بها . (١)

كما أصبحت اسلامبول (استانبول) مصدر اشعاع للفكر الاسلامي
في اوربا حيث انشئت فيها المدارس والمجالس العلمية والادبية ، كما
انشئت بها المساجد والمكتبات والمعاهد ، وتوافد اليها أهل العلم
من كل بقاع العالم الاسلامي والاوربي ايضا ، فكانت بذلك منبع العلم
والعلماء ودعمت بها حركة التأليف والترجمة لنشر المعارف بين الرعايا
المسلمين وغير المسلمين ، مما كان له اكبر الاثر في تاريخ الحضارة الانسانية
جمعا . (٢)

وسقوط القسطنطينية انتقلت العاصمة العثمانية من ادرنه العاصمة
الاولى للدولة العثمانية في اوربا الى القسطنطينية بعد تسميتها اسلامبول ،
وهارتللا تترك العثمانيين المسلمين مرفأ تجاريا من أهم المرافئ البحرية
على بوزاز البسفور والدردنيل حتى صاروا أقوى امة في البحر الابيض المتوسط
بعد ذلك . (٣)

-
- (١) الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٦٦
(٢) المقدسى السنبلى ، قلائد العقيان ، ورقة ٢٣ ، مخطوط .
(٣) الشناوى ، نفس المرجع ، ص ٦٤٩ ، الدسوقي ، الدولة العثمانية ،
ص ٤٤ ، اومان ، نفس المرجع ، ص ٢٦٦ .

هذا وقد اهتزت اوروبا كلها لسقوط القسطنطينية ونظرت الى هذا الحدث الجلل على انه مصاب ضخم للمسيحية وانتصار رائع للاسلام . ولم تلبث ان تحولت فكرة القتال ضد العثمانيين الى القتال ضد المسلمين كافة وغزو بلادهم امعانا في الانتقام واخذ الثأر لمدينة القسطنطينية . (١)

اما في الشرق الاسلامي فقد عم الفرح والسرور بين المسلمين ففى ربوع آسيا وافريقية لهذا الفتح الاسلامي العظيم . وما ان وصل رسول السلطان محمد الفاتح الى مصر والحجاز وفارس يحملون نبأ هذا الفتح حتى هلل المسلمون وكبروا ، وأذيعت البشائر من منابر المساجد ، وأقيمت صلوات الشكر ، وزينت المساجد والحوانيت ، وأمضوا الناس في هذه البلاد أياما كأحسن ما تكون ايام الاعياد الاسلامية روعة ورنقا وبها . وندع هذا المؤرخ المصرى المعاصر أبا المحاسن بن تغرى بردى يصف شهور الناس وحالهم فى القاهرة بعد ان وصل اليها رسل السلطان محمد الفاتح ففى الثالث والعشرين من شوال سنة ٨٥٧هـ (٢٧ أكتوبر سنة ١٤٥٣م) بنبأ فتح القسطنطينية ومعهم الهدايا واسيران من عظماء الروم . قال " قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه اسيران من عظماء اسطنبول وطلع بهما الى السلطان (انبال) وهما من أهل قسطنطينية وهى الكنيسة العظمى باسطنبول ، فسر السلطان والناس قاطبة

بهذا الفتح العظيم سرورا زائدا ودقت البشائر لذلك ، وزيت القاهرة
بسبب ذلك أياما . (١)

وقد بعث السلطان محمد الفاتح بعدة رسائل الى ملوك وسلاطين
الدولة الاسلامية ، يزف اليهم البشى بفتح القسطنطينية معقل المسيحية ،
وانتصار الاسلام والمسلمين . وقد سجل لنا التاريخ صورة هذه الرسائل
والرد عليها بمظاهر الفرح والسرور ، مما يدل على ان العالم الاسلامى ،
كان يعتبر نصر العثمانيين نصرا للاسلام فى كافة البلاد الاسلامية .
وهكذا توج جهاد العثمانيين ضد البيزنطيين بفتح القسطنطينية .

... ..

(١) ابن تفرى برقى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٧ (حوادث سنة
٨٥٧ هـ) .

الخاتمة

أهم النتائج التي توصل إليها البحث

رأينا فى الفصول السابقة كيف أن العقيدة الإسلامية واكبت الفتح
العثمانى ، حيث أخذ سكان البلاد الأوربية المسيحية يدخلون فى الإسلام
أفرادا وجماعات . ورغم هذا التسامح الدينى الذى واكب الفتح العثمانى
الإسلامى ، فقد حاول كثير من المؤرخين أن يجعلوا من تلك الفتوحات
العثمانية الإسلامية ، توسعا إقليميا عسكريا نتيجة دوافع اقتصادية ، ولكننا
استطعنا بعون الله سبحانه وتعالى أن نثبت أن فتوحات العثمانيين فى أوربا
ضد الدولة البيزنطية لم تكن إلا لنشر الدين الإسلامى والجهاد فى سبيل الله
طمعا فى ثواب الدنيا والآخرة . فقد وضع العثمانيون نصب أعينهم منسند
قيام دولتهم ضرورة فتح القسطنطينية عاصمة المسيحية الأرثوذكسية وقاعدة دولة
الروم ، التى كانت حاجزا كبيرا أمام انتشار الإسلام فى شرق القارة الأوربية .
ولذلك فقد وضع العثمانيون خططهم التى قامت على أساس تطويق القسطنطينية
والالتفاف حولها من جميع النواحي .

وكان أول موطئ قدم للعثمانيين فى أوربا حسب خطة الالتفاف هى
مدينة غاليبولى ، القلعة الحصينة ، ومنها إلى مدينة أدرنة التى اتخذها
العثمانيون عاصمة إسلامية ، ليستطيعوا من خلالها توجيه حركة الجهاد الإسلامى
ضد الدولة البيزنطية ، وقد كانت الدولة العثمانية بعد فتح أدرنة سنة ٧٧٢هـ
/ سنة ١٣٧٠م ، قادرة تماما على فتح القسطنطينية ، حيث كانت الدولة
البيزنطية فى حالة ضعف شديدة ، ولكن تمعا لخطة العثمانيين فى عملية
الالتفاف وحصار القسطنطينية من جميع جوانبها ، فقد أراد السلطان مراد الأول

في ذلك الوقت أن يقضى أولا على أعداء الدولة العثمانية من الصربيين والبلغار
أولا وكذلك أمراء آسيا الصغرى الخارجيين ، حتى لا يكون هناك ما يهزقل
الدولة العثمانية الإسلامية في فتوحاتها العظيمة ، وعلى رأسها الفتح الأكبر
للقسطنطينية •

وأثبتت الدراسة أيضا كيف وقعت الدولة العثمانية الإسلامية حاجزا منيعا
أمام التحالفات الصليبية التي كانت تريد القضاء على الإسلام في شخص للدولة
العثمانية ، وأن تلك الحروب كانت دينية بين الإسلام في شخص الدولة
العثمانية والمسيحية في شخص الدولة البيزنطية ومن وقف معها من اللقسوى
المسيحية الغربية • واستطاع العثمانيون بقوة عقيدتهم وتمسكهم بالجهاد
في سبيل الله تحقيق انتصاراتهم الرائعة على المسيحية بسقوط للقسطنطينية
في أيدي المسلمين العثمانيين وتحويلها الى عاصمة إسلامية كبرى في أورسا ،
انطلق منها المجاهدون لينشروا الدين الإسلامي الخفيف في باقي البلدان
الأوروبية •

كما حققنا ما تورط فيه كثير من الباحثين من تعمد المبالغة في عدد
الجيش العثمانية والتقليل من جيوش البيزنطيين ليصلوا من وراء ذلك الى
أن النصر الإسلامي العثماني كان بسبب كثرة العدد ، ولم يكن لقوة العقيدة ،
والتفاني في سبيل نشر الإسلام • ويرى ذلك واضحا عندما استطاع العثمانيون
— على سبيل المثال لا الحصر — تحقيق انتصار كبير وحاسم على التحالف

الأوروبي ضد الاسلام والمسلمين ، وذلك فى موقعة نيقمبوليس سنة ٧٩٨ هـ /
١٣٩٦ م ، وفى موقعة فارنا (وارنة) سنة ٨٤٨ هـ / سنة ١٤٤٤ م ، وفى
فتح القسطنطينية سنة ٨٥٢ هـ / سنة ١٤٥٣ م .

وبرهنت الدراسة على أن المسلمين المعاصرين أدركوا بأن نصير
العثمانيين نصر للاسلام والمسلمين جميعا ، فكانت كل البلاد الاسلامية تنظر
لهذه الفتوحات العثمانية الاسلامية خاصة ضد الدولة البيزنطية ، على أنها
الوثبة الثانية فى الاسلام . ويتضح ذلك جليا من خلال تلك المراسلات
التي كانت تتبادل بين السلاطين والأمراء المسلمين المعاصرين ، وبين
السلاطين العثمانيين الذين وصلت اليهم الرسائل العثمانية بأنباء وأخبار الفتوحات
الاسلامية فى اراضى الدولة البيزنطية خاصة، والأراضى الأوروبية المسيحية بصفة
عامة .

وبعد أن سقطت القسطنطينية فى أيدي العثمانيين المسلمين ، وانتشر
الاسلام فى كثير من بلدان أوروبا المسيحية ، اتضح للمسلمين أنهم اذا قويست
عقيدتهم واشتد ايمانهم . فانهم يستطيعون أن يحققوا للاسلام عزته ، وكرامته
مهما كانت قوة أعدائهم . وقد دل هذا النصر العثماني الاسلامي العظيم
على تلك الروح الاسلامية العظيمة التي تربي عليها العثمانيون الأتراك
وتأدبوا بأدابها حيث انعكست على أفعالهم فى البلاد المفتوحة وشعرهم بها
ولمسها رعايا هذه البلاد على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم ، مما جعل

الكثير من هؤلاء المسيحيين يتجهون الى الاسلام واهتمامه اقتناعا بما يلاقونه
من حب ورحمة ومساواة من جانب المسلمين الفاتحين .

وفي الختام أوجو من المولى القدير أن يكون هذا المبحث قد حقق
الغاية المرجوة له ، ولكمال الله سبحانه وتعالى وحده .

الملاحق

ملحق رقم (١) : رسالة السلطان مراد خان الثاني إلى سلطان مصر الأشرف بأمر سبأى يخبره ويهنئه بفتح قلعة سلا نيك على يديه ويعزيده في موت ولده يوسف .

ملحق رقم (٢) : رسالة السلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر الأشرف إينال يخبره فيها بفتح القسطنطينية .

ملحق رقم (٣) : جواب سلطان مصر إلى السلطان محمد الفاتح .

ملحق رقم (٤) : رسالة السلطان محمد الفاتح إلى شريف مكة (وقد أرسلها إليه عن طريق سلطان مصر) .

ملحق رقم (٥) : جواب شريف مكة إلى السلطان محمد الفاتح .

الملحق رقم (١)

رسالة السلطان مراد الثانى
الى سلطان مصر الأشرف برسباى
يخبره ويهنئه بفتح قلعة سالانيك على يديه
ويعزيه فى موت ولده يوسف (١)

الحمد لله الذى أعلا أعلام الدين باعلاء كلمة الحق المبين ، ورفع لواء
أهل الايمان بلمعان بارقة سيوفهم على ظلمات الكفرة والمشركين ، وفتح علينا
أبواب النصر والظفر بكسر أحزاب الشياطين ، وتخريب بلاد الكفار والملاعين ،
نصر من الله وفتح قريب ومشر المؤمنين . وسرور هذه البشرى أزال الأحزان
عن قلوب عباده المخلصين ، بعد أن يملوهم بنقص من الأولاد بقوله تعالى
" ومشر الصابرين " الآية ، والصلوة على خاتم المرسلين محمد المصطفى
الأمين وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوا شرايع الدين . . . وأن يبدل أحزان
هذه المصيبة بمسررات خير ظفر المسلمين وقلبة المجاهدين على أعداء
الدين وأحزاب الشياطين لعنة الله عليهم أجمعين ، ولا سيما بفتح سالانيك
التي هى أحصن القلاع الافرنجية وأصعب الديار الحربية ، هى والقسطنطينية

(١) فريدون بك : مجموعة منشآت السلاطين ، المجلد الأول ، ص ١٩٨-٢٠٠

توأمَانِ في كونهما منبجى الكفر والضلالة في أيدى الكفرة الفجرة ، ومظهِرى
المدوان والفواية في تصرف مشركى الخسقة بل هى أشد من القسطنطينية
في اضرار أهل الاسلام بالفتنة والفساد فعزمتها وحاصرناها بخلوص الطوية
والاعتقاد ، فشاهدناها مشيدة البرج والبنيان ، مرصعة الجدران والأركان ،
وقللمها بأوج السماء محاذية ، ومدهقاتنا من رؤس أهاليها دانية ، فدعونا
أهلها الى الاسلام أو الجزية فأبوا عنها ولم ينفعهم تكرار الدعوة ، فخفضنا
عقائدنا لمجرد اعلاء كلمة الله العليا بقطع النظر عن أقراض الأموال وزخارف
الدنيا . ففي غدوة اليوم الخامس من شهر رجب سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة
بالتكبير والتهليل شرعنا بالحرب ، فلما نصبت الرايات الاسلامية المنصورة
المنسوبة الى آيات الفتح والظفر على الكفار وجاء نداء " نصر من الله وفتح
قريب " من اليمين الى اليسار وآية " جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل
كان زهوقا " من الفوق ففتحت بالصولة الأولى قبيل الضحوة الكبرى من ذلك
اليوم فذلك الآية من آيات القرآن العظيم ومكة أفيضت علينا من معجزات
النبي الكريم حيث قال عليه التحية والتسليم لا يزال طائفة من أمتى على الحق
ظاهرين الى يوم القيامة صدق رسول الله . وفاء المجاهدين بالمفانم الجمّة ،
وكسروا أوثانهم وصلبانهم ، وخرّبوا دّورهم وقصورهم ، وأسروا اناشهم وذكرهم ،
وجعلوا كتابهم الجمع والمساجد وأظهِرنا فيها شعائر الاسلام فقروا " الحمد
لله رب العالمين " . ثم لما كان فى المملكة الاردنية تكفور مسمى بايوان
المتملك بالمملكة الكثيرة من القلاع والبلدان فانه ما هو خال من وراء وغدر
وعدوان ، ولم يزل يشتكى الينا من خراب بلاده وضعف رعيته ويقسم انه فى غاية

المجز عن جمع مال القطيعة ويبالغ في سؤاله من امهال ماله قليلا . وكنا
أولا نظن الصدق في مقاله الى أن كشفنا أخباره ، وتحققنا كذبه وفساد نيته
وتسويفه وجمعه مال القطيعة وصرفه اياه فيما أراد ، وقد بحث عزمنا بالمساكر
المنصورة الى جهة تخريب بلاده وقع آثاره وهدم حريمه ودك قلاعہ على
رأسه ففتحت عنوة بحون الله تعالى على وجه السداد ، وكان ايوان
اللعين متحصنا بشواهد الجبال في أقصى ملكته فتيقن بعدم نفع الفرار
فجاء مطيعا ومنقادا ، فقطع دابر الكفار فجهزنا مجلس الأمير المكرم خلاصة
صناديد العالم مالك ممالك المعالي والمكارم بدر الدين محمود بك
أدام الله معاليه ولا يزال فضل الله حاميه لينوب عن المحب المخلص بإفادة
سنن التميزة وسنن مراسم التسلية وليعلا مسامح سلطان الاسلام والمسلمين
عز نصوه مسرة وابتهاجاتنا على ظهور المؤمنين ، وخلاص الظالمين من أيدي
الظالمين ، الذين يخربون البلاد ، ويعذبون العباد والحمد لله رب العالمين
على حصول تلك النعمة العظيمة وقد جهزنا بصحبته من الهدية ما تضمنته
الورقة المحفوظة على ذيل هذا المسطور ليكون رسم المراسلة غير مهجور . . .

الملحق رقم (٢)

رسالة السلطان محمد الفاتح
الى سلطان مصر الأشرف ايسال
يخبره فيها بفتح القسطنطينية (١)

"بسم الله الرحمن الرحيم متينها بذكوه القديم (اللهم مالك الملك تؤتي
الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتجز من تشاء وتذل من تشاء بيدك
الخير انك على كل شئ قدير) يحمد الله ويشنئ عليه عهده المستبشـر
بالمبشرات المتواردة ، اللاتي ينبئن عن استقرار القدم المقدم المقدام على
سير السلطنة السامية الباهوة بالدولة الحالية القاهرة الا وهو السلطان الوالى
الحالى الحالى الحاملى المؤيدى المظفرى الظهيرى النصيرى العونى الفوشى
الغياثى الامامى الهامى النظامى الذى أشرقت من أفق التوفيق شمس
سلطنته ، وخفقت راية الاقبال من هبوب نسيم خلافته ، ويتطأ لها أعناق
الجباهرة نحو سده السنية ، ويتكأ أفيال الأكاسرة على عتته العليسة ،
وم أضحى عقود الامامة منتظمة ، وأمور السلطنة ملتزمة ، ويتفاخر بوصفه
المآثر ويختال بذكوه المفاجر ، أعنى الملكى الألفى السلطانى الأشرفى

(١) فريدون بك ، مجموعة منشآت السلاطين ، م " ١ " ، ص ٢٣٥-٢٣٨.

الأبوى الأعطف ضاعف الله تعالى ملكه وسلطانه ، وأفاض على العالمين بصره
 واجسانه ، ولا يرح في دولة لا تنهدم دارها ، ونعمة لا تنقص آثارها ،
 وسعادة لا تصفر أوراقها ، وسيادة لا تتغير آفاقها ، وما انفك بنود الدين
 بياهر صولته مرفوعة ، واسنة الحوادث في نحور أعدائه مكسورة ، وجماجم
 حساده على رؤوس الاسنة منصوبة تحت الأقدام . ونقول لما تناهت عندنا
 الأخبار التي تشتمل على صعود شمس السلطنة على أوج سرب الخلافة أدامه
 الله وأعلاه وبارك فيه ، وأبقاه ببركة نبيه المجتبى ورسوله المصطفى عليه
 وعلى آله من صلة الصلوات أزكاها ، ملئنا بهجة وسرورا وغبطة وحبورا ،
 وأنشدنا بلسان صدق بشعر :

هنيئا لمصر أنت صوت عزيزة	بلغ الأمانى وابتناء المحامد
وتعتدل الأيام فيها ويقتنى	صفوف البرايا منه طرف الفوائد
فمذ ظهرت فيه علايم بأسكم	قد التطمت منها رسوم المفاصد

هذا أو ان الولاء والمواصلة بين من تكفل بمؤنة أحياء نسل الحج للعباد
 والعباد وبين من تحمل بمشاق تجهيز أهل الفزرو والجهاد كما هو المتوارث من
 الآباء والأجداد ، أنعمهم الله بنعمه الموعودة في الميعاد ، فالقلب مصمم
 على تأييد تلك القديمة بسلوك طرائق تنسى لطائف آخرها بطيب نعيمها
 لذايد أوليها ، فبهذا الجهل المتين نحن ما سكون ، وعلى هذا الصراط
 المستقيم المستبين سالكون ، فشددنا وثق صدق ذلك المقر العالي أعلاه الله

وأسماء ، وفتحنا أبواب المراسلة ، وقدمننا أسباب المواصلات ، وأهدينا طرايف التسليمات السليمة عن شوايب الرياء والرعونات ، واتحفنا لطايف التحيات المنورات بنور الاخلاص المجلاة بالولاء ، والاختصاص المزهوات بصدق الطوية رياضها المترعات من زلال المحبة حياضها ، ورفعنا الأدعية الصالحة المستجابة ، والاثنية الفايحة المستطابة ، والأشواق البالغة ذروة الكمال ، والأتواق المتوالية بالخدر والآصال ، وانهمينا الى العلم الكريم مخفوا بما يسره الله تعالى من المطالب البهية ، والمآرب السنية ان من أحسن سُنن أسلافنا رحمهم الله انهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ونعني على تلك السنة قائلون ، وعلى تيك الأمانة دائمون وممثلين بقوله تعالى — " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله " و متمسكين بقوله عليه السلام " من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار " فهمنا في هذه العام عمه الله بالبركة والانعام محتصين بحبل الله ذي الجلال والاکرام ، و متمسكين بفضل الملك العلام ، الى أداء فرض الفزاة في الاسلام مؤتمرين بأمره تعالى " قاتلوا الذين يلونكم من الكفار " و جهزنا عساكر الفزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورا وكفرا ، التي بقيت وسط الممالك الاسلامية تباهى بكفرها فخرا ، شمر :

فكأنها حصف على الخد الأفسر وكأنها كلف على وجه القمر

وهي محصنة صعبة المرام ، شامخة الأركان ، راسخة البنيان ، ملوثة من المشركين الشجعان ، خذلهم الله اينما كانوا ، وهم مستكبرون على أهل

الايمان ، متناصرون بالجزاير الغربية مثل روه من قطلان ووندك وجنوبيـــــــز
فيهم من أهل الشرك والطفيان ، وحصن حصن مسدد مشدد مشيد منسق
النظام ، ما ظفربه أسلافنا المظالم هؤلاء السلاطين الفخام مع انهم جاهدوا
حق الجهاد ولم ينالوا بها تيلا ، وهى قلعة عظيمة مشتهرة فى السنة
أهل الأرض باسم القسطنطينية ، ولا يبعد من أن تكون هى التى نطق بها
صاح الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية عليه وعلى آله أتم الصلاة والتحية
" فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون "

الحديث وفيه هذا من الصحاح المشهور هى هذه المدينة الواقع جانب منها فى
البحر وجانب منها فى البر فأعدونا لها كما أمرنا الله بقوله " وأعدوا لهم
ما استطعتم من قوة " كل أهبة يعتمد بها وجميع أسلحة يعتمد عليها من البرق
والرعد والمنجنيق والنقب والجحر وفيها من جانب البر والفلك المشحون ،
والجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ، من جانب البحر ونزلنا عليها فى السادس
والعشرين من ربيع الأول من شهر سنة سبع وخمسين وثمانماية * شعر :

فقلت للنفس جدى الآن فاجتهدى وساعدينى فهذا ما تمنيت

فكلما دعوا الى الحق أصروا واستكبروا ، وكانوا من الكافرين فأحطنا
بها محاصرة وحاربناهم وحاربونا ، وقتلناهم وقتلونا ، وجرى بيننا وبينهم
القتال أربعة وخمسين يوما وليلة * شعر :

إذا جاء نصر الله والفتح هيين على المرء معسور الأمور وصحبها

ما فتىء طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى هجمنّا مثل النجوم رجوما لجنود الشياطين ، سخرها الحكم الصديقى ببركة المدل الفاروقى بالضرب الحيدرى ، لآل عثمان قد من الله بالفتح قبل أن ظهرت الشمس من مشرقها " فيهنّم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر " . وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكـسود فاهلكوا كقوم عاد وشمود فحفظهم ملائكة العذاب فأوردوهم النار ونس المآب ، فقتل من قتل ، وأسر من بقى ، وأغاروا على خزائهم وأخرجوا كنوزهم ودفائينهم موفورا فأتى عليهم حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء فلما ظفروا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحلوس ، طهرنا القوس من القسوس وأخرجنا منه الصليب والناقوس ، وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الاسلام ، وتشرفت تلك الخطبة بشرف السكة والخطبة فوق أمر الله وحطـلـل ما كانوا يعملون .

ومعد فكانت فى شط الشرم الذى يكون شماليا منها قلعة افرنجية جنوزية وهى المحصنة المدعوة بقلعة غلطة وهى جارة لها متسقة النظام مطوة من المشركين اللثام ، فلما حاصرونا قسطنطينية جاءها أهل تلك القلعة وشدوا بنا ميثاقهم وجددوا معنا وفاقهم وقلنا لهم كونوا كما كنتم واثبتوا على ما أنتم عليه بشرط أن لا تعينوا بها ، فقبلوا شرطنا ، وأطاعوا أمرنا . فلما وقع ما وقع على قسطنطينية وجد بين القتلى والأسرى من أهل غلطة وهم قد حاربونا

وإذا انهم نقضوا ميثاقهم وأظهروا نفاقهم ، فأردنا أن نفعل بهم ما فعلنا
بالأخرى فبينما هم جاؤا مهتلين ومتضرعين وقالوا ان لم ترحمنا لنكونن ممن
الخاسرين ، فحففونا عنهم انه هو العفو الغفار ، ومننا عليهم النعمة لله العزيز
الواحد القهار ، وقررنا على ملكهم الملك لله العزيز الجبار ، ولكن جعلنا
حصنهم صعيدا جززا بحيث لا ترى فيها عوجا ولا أمثا ، وملكنا أرضهم وماءهم
وكتبنا في جريدة الجزى أسماءهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون
” الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ” . شعر :

سعد الزمان وساعد الاقبال ودنا المنى وأجابت الآمال

فلما جمع الله تعالى بفضله فى قلب عبده زين السرورين العظيمين
أحدهما حفظ نظام سرير السلطنة ، وحماية البلاد والاخر قررة لعين الشرع
بأحيا فرض الجهاد وجه تلقاء الأرض المقدسة التى يبارك الله فيها بأجرا
أحكام السلطنة حامل وقر الثناء وناقل ورق الدعاء فخر الأماجد ذخى المحامد
أمير جلال الدين القابونى رزقت عودته بالسلامة بهدية يسيرة من الاسارى
والفلمان والأقمشة ، وغيرها حسبما ذكر مفصلا فى كتاب غير هذا وان كانت
نسبتها الى ما وجب علينا كنسبة للقطر الى البحر ، فالمأمول الاعضاء بحسن
القبول ، فاذا يسر الله التشريف بتقبيل بساط الخلافة زاد الله بسطه
بالعدل والنصر يتأمل ويتمنى أن ينعم بالمشرفات السارة المحتومة بسلامة
النفس النفيس الطيبة ، وصحة الذات المطهرة أبقاها الله فى دولته دينية
ودنيوية ، وسوانح الأخبار من مهمات السلطنة كما نتشرف بالانتاء الى ذلك

المقر الشريف وتتلطف بالاعتراء لذلك المجلس اللطيف ونحن نترقب طيبات
أدعية تلك المساكن الطيبة والله مجيئها ببركة نبيه المجتبى عليه من
التحيات أزكاها الحمد لله على نواله والصلوة على محمد وآله والله أعلم
بالصواب واليه المرجع والمآب .

الملحق رقم (٣)

جواب سلطان مصر الى السلطان محمد الفاتح (١)

أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالي الكبيرى العالى العادلى
المجاهدى المرباطى الخياشى المهدى المشيدى الزعيمى الظهيرى الناصرى
محز الاسلام والمسلمين ، ناصر الفزاة ذخر المجاهدين ، ملجأ الفقراء
والمساكين ، زعيم جيوش الموحدين ، ممد الدول ، مشيد الممالك ، حامى
الثغور الاسلامية ، غياث الملة المحمدية ، ملك الملوك والسلطين ، عضد
أمير المؤمنين وهنأ بهذا الفتح الذى جاء الاطناى فى بلافته وجيزا وابتهل كل
موحد به وأعلن بسورة الفتح وتلا " وينصرك الله نصرا عزيزا " . لا زالت
وجوه النصر ترى فى مرآة صفاحه وثمرات النضر تجتنى من أنفصان رماحه ، وفروشه
الجهاد بسيفه المسنونة فى كل وقت تقام ولاده الاسلامية مخروسة بالجناب
المحمدى عليه السلام ، وهمزات عوامله بصدور الكفار موصولة ، والسن سيفه
بشور بلادهم من رشف ارحاق دمائهم ملولة ، وهم أبطاله منتظمة فى نصرة
دين الله كالعقد النظيم " وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم " ولا يروحت
عزماته تحلى من أعداء الاسلام المقاعد ، وتحل منهم المعاهد وتحلو عليهم

(١) فريدون بك ، مجموعة منشآت السلاطين ، م " ١ " ، ص ٢٤٠ - ٢٤٣ .

مواقف الحرب مستمرة المواقف ، وتطلع في سماء النقع من سيوفه نجوما ، وقادة
وتشهد على الكفار في مضر الخزوما يحجز وكيف وذاك المواطن محل الشهادة
فهو بحمد الله ما سلك خلف الكفار برا الا قالوا " لقد لقينا من سفرنا هذا
نصبا " ولا خاض عباب بحر " الا اتخذ سبيله في البحر عجبا " .

أصدرنا هذه المفاضة الى المقر الكريم محربة عما نحن منظرون عليه من
التهاني بهذا الفتح الذي وضع على جبين الصباح بشره ، ورجح على ميزان
الكواكب قدره ، ونخصه بسلام يتأرجح عرفا ، ويتلج وصفا ويكاد يمازج النسيم
لطفا . وثناء ، جلل ما لبس الاكرام وأضفى وأعذب موارد الوداد ، وأصفى
قد اتخذ نفحات المسك طليحة ، وأجمل لرداء الملك تفويفه وتوشيحـه ،
وانتشر به بناء الحب الذي استودعه من الصدور الرسائل بحفظ الله هذه
الوديعة . ونهذى لعلمه الكريم ورود كتابه الكريم وخطابه الذي أزرى بالدر
النظيم على يد المجلس السامي الأيمرى الكبيرى الأوحدى الأكملى المؤتمنى
المقرين الجمالى يوسف القابونى الناصرى أحسن الله وفادته ويسر الى المقر
الكريم اعادته ، فأكرمناه حين قابلناه ورفعنا محله لما تناولناه ، واستشقنا
المسك لما فضضناه ، وابتهجنا ابتهاج الظمان بوروده ونظرنا منه الى أحسن
من برود الريح اذا حل الندى ازرار وروده ، فشمنا فحائل النصر من سطوره ،
ونزهنا النواظر فى رياض منظومه ونشوره ، وتلمحنا من خطه وخطابه ما هو
أزهى من زهر الخمايل عند مر النسيم ، ووجدناه مشتتلا على أنواع البراعة
محاشي الرقيم ، محتويا على بديع الألفاظ التى سحبت ذيل الباقة على

سحبان في الزمن القديم ، متضنا بما من الله به ويسره على المقر الكريم من هذه
النصرة على أهل الكفر والحناد ، ولوفه من انعام أعداء الله ورسوله بسني
الأفسر أقصى المراد ، وانتهينا الى ما أشاء اليه من سيره على القسطنطينية
المحطى بحساكره الاسلامية وجنوده المهدية ، وانهم أحد قوايها فكانوا لها
أصفادا ، وزلزلوا أرضها بجياد خيل وقت صابرة فكانت أوتادا ، وانهم
أرسل التهانى في البحر جوارى كالأعلام ، ومدنا في اللج سوائر كأنها مخلقة
بالايام ، ورمها بفوسان من البر وأقدم على منازلها بمن أطاع الله ويسره ،
وخطبها بكرة فتمتعت وأطالت في التحنى فترفت ، فلما تحققت عظم أمرها
في النفوس ورأت كثرة ما ألقى اليها من نثار الرؤس ، ضجت الى الأحضان
بعد النشور ، وعلمت أن الامتناع من قبول الاحسان لا يجوز فلمكنت زمامها من
يد خاطبها وامتمته على رخم أنف مراقبها وأنشد لسان الحال ، شعر :

خطبتها بكرة وما أمهرتها	الا قنا وقواضيا وفوار سنا
من كانت السر العوالي ميسره	جلبت له بيض الحصون عرايسا
الله أكبر ما جنيت ثمارها	الا وكان أبوك قبلك غارسا

هذه كلها بحزائم لم يشمها في الحرب نكول ولا تقصير ، فكان بحمد الله
جميعه جمع سلامة ، وجمع الاعداء جمع تكسير ، فأخذهم أخذ القرى وهى
ظالمة ، وأعلمهم أن السيوف الاسلامية لم تترك لهم بقوة الله يدا في الحروب
مهسوبة ولا وجلا في المواقف قائمة ، فزلزل بضمون الله أقدامهم ونكس أعلاصهم ،
وقايل الحدو بصدرة وقايل حتى أفنى جديد بيضه ويسره ، وهبت نسيمات النصر

على جيوشه فقيل يا خيل الله اركبي وبأيد النصر اكتبى ، وقامت الحرب على سلق وأضحى كل من الاعداء الى حتفه يساق ، وهجرت سيوفهم الاغصان ، وأقسمت انهم لا تقرأ الا فى الرؤس ، والاسنة أسرع وآلت انهم لا تروى ظمأها الا من دماء النفوس ، والسهم ، قد التزمت انهم لا تلج كتابتها الا من النحرور ولا تحصى عن حنايا القسى بخبايا الاضلع الا لترفعها لا تحل الا فى الصدور والدروع ، قد لزمت الأبطال قائمة لا تفارق الأبدان حتى تتلى سورة الفتح المبين ، والجياد حومت وطء الأرض وقالت لفرسانها لا نطأ الا جثث القتلى ورؤس الملحدين ، فعند ذلك أثبت سيفه الناصر الحق لأنه القاضى فى ذلك المجال ، ونفذت سهامه لأجل تصميمه فلم تمهل حتى أخذت دين الآجال وهو حال . شعر :

الله أكبر هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لا ما يزعم البشر

فظهر الله منهم تلك الديار وسلموا عندما ايقنوا بالدمار ، وصارت بحمد الله نجوم الضلال آفلة ومواطن الكفر بالاسلام أهلة ، وعن الأذان يحرب حيث كان الناقوس يضرب ، وأصوات حماة الاسلامية بالتكبير والتوحيد بها عالمة فقد فهمنا ذلك وحمدنا الله تعالى :

وقابلنا هذه البشارة بتكرار الشكر لله الذى جعل جيوش الاسلام حيث سلكت ملكة ، وأين حجت من بلاد أسرت وفتحت ، لله العمد الذى أيدكم بنصره وجعل مهابة جيوشكم فى قلوب الكفرة تقوم هزيمة العدو وحصره ،

وظفركم على حزب المشركين الذين زعج هيتكم دانيهم وقاصيهم ، وأنزل
الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وسدد سهم رأيكم الذي دل على
هلاك العدى سرعة نفاذه ، ووعدكم مغانم كثيرة تأخذونها فمجل لكم هذه
وتمكم في بلاد العدى لتثربوا بها المهابة وتطوها ، وأورثكم أرضهم
وديارهم وأرضاً لم تطوها . ولقد أيدتم هذا الدين المحمدى الذى وضع
به طريق النجاة ، واستثار وفزتم بقوله عليه الصلوة والسلام " ما أفبرت قدما
عبد فى سبيل الله فتمسه النار " وقوله صلى الله عليه وسلم " ان الجنة مائة
درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء
والأرض " رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما ، فله الحمد على ما أنعم
به عليكم من الفخريات التى سطرت أجزورها فى صحايفكم وصحايف أسلافكم
الكرام ، وصار خبرها غرة فى جبهة الدهر وحسنة فى صحيفة الأيام ولقد أنشد
شاعر حضرتنا :

كذا فليكن فى الله جل الحزايم	والا فلا تجفوا الجفون الصوارم
كتائبك البحر الخضم جيادها	إذا ما تهادت موجه الجلاطم
تحيط بمنصور اللواء مظفر	له النصر والتأييد عبد وخادم
فيا ناصر الاسلام يامن بنزوه	على التفر أيام الزمان مواسم
تهن بفتح سار فى الأرض ذكره	سرى الخيى يحدوه الصبا وانعام

فهند ذلك أمرنا باعلان البشائر واطهار الزينة والسرور بمالكنا الشريفة
لما من الله به من هذه النصرة وأمددناكم بصالح الدعاء مع تضاعف المسرة ،

وأضحى المسلمون مستبشرين بهذه النعمة التي تسير كل واحد منها بأمرى لبس ، وتلا كل منهم ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، وجهزنا أميركم مفخر الحجاج والزوار زين الدين حاجي محمد الزيتوني زاد الله ثقله ويسر مناه مع الافلوريات المسكوكة بالسكة الجيدة الجديدة السلطانية المنهضة الى شريف مكة المكرمة وفقراء الحرمين الشريفين مع القافلة المصرية فالمرجو من الله عز وجل أن يصل الى المقصود بالخير سيحود ان شاء الله تعالى .

وأما ما أشار اليه الكريم من سروره وابتهاجه بجلوسنا على سرير ملكنا الشريف ، واذعان جميع الرعايا لطاعتنا وأمرنا المنيف من المشرف والشريف ، وأنه أخذ بالحظ الوافر من هذه البشرى التي خصت الاسلام وعمت أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه أمدنا بدعائه ان الله يشد أزر سلطاننا ويشيده ويجعل ألوية ملكنا الشريف مسيلة على مقامنا ، ويخلده وما أشار اليه من أنه عاقبة هذه الفوزة الشريفة عن المكاثبة والابتداء بالمخاطبة لتحقيق بخواطرننا الشريفة تأكيد أسباب الوداد وتصحيح علل الاتحاد ، فقد فهمنا ذلك ونتحقق ان المحبة لنا من هذا البيت الكريم مستديمة ، والمودة بيننا وبينه كالاسلاف الكرام مستقيمة ، وقد تواردت الخواطر منا ومنكم على عقود المحبة بجميل الاعتقاد ، وتأكد المودة بحزير الخلوص والوداد . وأما الهدية التي شرفنا بارسالها فقد وصلت والاقبال قوبلت ، وشكرنا صدق محبة مهديها ، وأثنينا على جميل موالاته التي لم تزل في ملأ ملكنا نهديتها . وقد أعدنا المجلس السامي الجمالي قاصدكم المشار اليه بحد أن عومل بمزيد الاكرام

ووافر الاحسان وقرر الاحترام ، وأرسلنا معه أحد أمرائنا وأعز أخصائنا المجلس
الساحى الاميرى الكبيرى الذخرى المؤتمنى الأخصى الأكملى المقربى الأوحدى
السيفى برونديق الأشرفى أدام الله سعاده وكتب سلامته بما على يده من
كتابنا الشريف وخطابنا المنيف والهدايا والتحف التى تؤكد أسباب الوداد ،
وجميل المصافاة والاتحاد ، وحملناه من السلام للمقر الكريم . ما ييتسم ثمر
الدهر عند أدائه ، ويسفر وجه البشر عند ابدائه ، وسيحيط علمكم الوسيح
بما تحملناه من ذلك ، فنتحف بتجهيز رسله وأخباره السارة من هناك والله
تعالى يمدده بأعوانه وأنصاره ، ويخلد نعمه عليه بدوام ليله ونهاره ، بمنه
وكرمه . كتب فى أواخر شهر ردى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وثمانمائة
من الهجرة النبوية على واضعها السلام .

الملحق رقم (٤)

رسالة السلطان محمد الفاتح الى شريف مكة
(١)
(وقد أرسلها اليه عن طريق سلطان مصر)

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ادام الله علو المقر الكريم
السيدى السندى الشرفى الأشرفى الأكرمى الأعلى الأورعى الامامى الهامى
الأوحدى الأمجدى العالمى العالى الأعظمى الاولوى الأعلى العلى
المشيدى المؤيدى النصيرى الظهيرى الظاهوى الطاهوى ، محلى قواعده
الموسم والعزمين ، حاضى مشاهد البقاع الشريفة والمروتين ، مؤسس مواسم
العظيمة والجلال ، مؤكد محاهد المقاصد والآمال ، مطلع لوايح الحسن
والتمكين ، مظهر مآثر الملك والدين ، فلذة أكياد الرسول زبدة أخصاد
البتول أمير المسلمين وولى المؤمنين خلاصة أولاد شفيح المذنبين وهو السيد
الشريف والقرم المنيف ، سلطان بيت الله تعالى ، شرفه الله وحواليه
علاء الدولة والملة والدين السيد الأحسنى المجلانى الحسنى زاد الله
تعالى سعادته ، وأدام سيادته ولا خلا فى دولة لا ينهدم دارها ونعمة
لا ينقص آثارها ، ولا زالت أسباب مودته ومحبه مؤكدة ، وعقود مولاته

(١) فريدون بك ، منشآت السلاطين ، م ١ ، ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

وهمته منتظمة منضده مدى الدهور والأعوام ، بحرمة سيد الأولين والآخرين
وآله وصحبه أجمعين الطيبين الطاهرين عليه أفضل الصلاة والسلام .

ومحمد فقد أرسلنا هذا الكتاب موشرا بما رزق الله لنا في هذه السنة
من الفتح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وهي تسخير البلدة المشهورة
بقسطنطينية الملاصقة بمرج البحرين وفي مقابلتها مدينة أخرى موسومة بنخلطة ،
وفي جانبها الشرقى بلدة أخرى محلة باسكدار . أما الأولى فكانها شعبان
له سبع رؤوس من قللها المشتهرة وتلك القلل سبع رؤوس شامخات حصينة
رفيعة ، مهياة بأمر الله عز وجل لمقرا لخلافة الاسلامية ومرزوقه لنا بتقدير
الحكم السبحانية ولا شك أنها سلطان البلاد ، والأخريان من جنبيها يميننا
وشمالا كخادمين في طرفي السلطان . فلما توجهنا وعزمنا عليها ، هجم علينا
القفار المملوءة فيها خارجا وداخلا ، وحاربوا معنا ، فقام المحاربة بيننا
وبينهم قريب شهرين بعد ابائهم عن اعطاء الجزية الشرعية ، ثم عجزوا عن
القتال ، وهربوا من الجدال فازدحم أهل الاسلام ، وجاهد كل من
المجاهدين عن البر والبحر حق الجهاد ، فقتلوا من السور وصعد جم كثير من
الكماة الموحدين فوق منافذ جدرانها المدرسة من المنجنيق والممرادة ،
فدخلوا في نفس هذه البلدة المباركة المنورة بقدم الموحدين بالتكبير
والتهليل ، يوم الثلاثاء والعشرين من شهر جمادى الأولى ، فقطع في مبدأ
الأول رأس رئيس هذه الملاعين ، أعنى التكفور اللعين ولحق بجنبيهم مع
سائر المقتولين ، وأسروا ذراريهم وصبيانهم وجعلوا معابدهم القسيسية

مساجد الأمة المحمدية وجمع الملة الأحمدية ، وطهر تلك المواضع عن الأرجاس
الرهبانية والانجاس النصرانية " فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله
رب العالمين " . وأما بقية السيوف فعتقونا عنهم وقطعنا عليهم الجزية
السنية سحيا لبيت المال . فلما تشرف منابر الخطب بشرف القابنا الباهرة
وتزين وجوه الدراهم والدنانير المسكوكة بزيينة أسمائنا الجليلة الطاهرة ،
جهزنا الى خدمتكم الشريفة فخر المقربين وزين حجاج الحرمين خواججه
حاجي محمد الزيتوني حفظه الله في الذهب والاياب ، ورزقه الوصل
والمعاودة بالخير والصواب ، لتبلغ الرسالة وترسيل البشارة فالأمر
من مقر عزكم الشريفة أن ييشق بقدم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى
مع سكان الحرمين الشريفين والعلماء والسادات والمهتدين والزهاد والعباد
والصالحين والمشايخ والأعاجاد الواصلين ، والأئمة الأخيار المتقين والصفار
والكبار أجمعين المتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام التي كالحريرة
الوثقى لا انفصام ، والمشرفين بزعم والمقام ، والمعتكفين في قرب جوار
رسول الله عليه التحية والسلام ، داعين لدوام دولتنا في العرفات ، متضرعين
من الله نصرتنا أفاض الله علينا بركاتهم ، ورفع درجاتهم بالنبي النبي وآله
وذويه . ومحثنا مع المشار اليه هديه اليكم خاصة ألقى أفلورى من
الذهب الخالص التام الوزن والخيال ، المأخوذ من تلك الثنية وسبعة
آلاف أفلورى آخر للفقراء منها ألفان للسادات والنقباء والألف للخصم
المخصصة بالحرمين والباقي للمتسكين المحتاجين في مكة المعظمة
والمدينة المكرمة زادهما الله شرفا ، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى

احتياجهـم وفقرهـم واشعار كيفية السير اليـنا ، وتحصيل الدعاء منهم لنـسا
دائـما باللطف والاحسان ان شاء الله تعالى ، والله يحفظكم ويقيكم
بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية الى يوم الدين آمين يا رب العالمين
وصلـى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه أجمعين .

... ..

الملحق رقم (٥)

جواب شريف مكة الى السلطان محمد الفاتح (١)

يقهل الأرض في حضرة السلطانى المخدومى المظفرى المنصورى المجاهدى
المرابطى الأعظمى المؤيدى المشيدى العنوى الخوش النصيرى للناصرى
محين الاسلام والمسلمين ، سلطان الملوك والسلاطين ، نور عيون المجاهدين
نور حدايق لطف الله فى الارضين ، قهرمان الماء والطين ، محبى الشريعة
المحمدية ، منجى الملة الاحمدية ، الفايق على أسلافه فى الشـزـو
والجهاد ، البهاى بين أقرانه بالفتح وتسخير البلاد الذى يفتخـر
بعهده الشرف السوابق واللواحق من آل عثمان المشرف بتشريف * ان الله
يأمر بالعدل والاحسان . لازالت أولياؤه منصوره ، وأعداؤه مقهـرـه
وحصون الخصماء بصلابته مفتوحة ، ونواحى بلدانهم وديارهم بمهابته
مضبوطة ، وما برحت نواحى أجهاء دولته فى غداة غزواته بهيضة ، وشفاهم
ضاحكة مستبشرة ، ووجوه المشركين عليها غيرة ترهقها فترة أولئك هم الكفرة
الفجرة ، وصاكره المنصورة مؤيدة من عند الله العزيز المجيب ، وأعمال
نصره منتشرة بكتاتيب (نصر من الله وفتح قريب) ما قرت الخبراء قرارها ،

(١) فريدون بك ، منشآت السلاطين ، م ١* ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

ودارت الخضراء أدارها بالنبي النبیه وآله وذوہ .

ومعد یدی لعلہ الحالی أعلاه الله وأدامہ بالدولة الأبدیة والسعادة
السرمدیة أن مشرفتکم الشریفه ومشرتکم المنیفة وردت الى مخلصه الداعی
بالإخلاص ومحبة المباحی بالاختصاص علی ید فخر الزوار وزین الحجاج خواجه
حاجی محمد الزيتونی زاد الله تقواه ، وجعل أخراه خیرا من أولاه . فی
أحسن الأوقات وأطيب الساعات ، فاستقبلناه بالتعظیم وقبلناه بالإجلال
والتکریم ، وفتحناها بکمال الادب وقوانها مقابل الکعبة المعظمة بسین
أهل الحجاز وأبناء العرب ، فرأینا فیها من القرآن ما هو شفاء ورحمة
للمؤمنین ، وشاهدنا من فحواصیها ظہور معجزة رسول الله خاتم النبیین
وما هی الا فتح القسطنطینیة العظمی وتوابعها التي متانة حصنها مشہورة
بین الأنام وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام ، وحمدنا الله
تعالی بتیسیر ذلك الأمر الحسیر وتحصیل ذلك المهم الخطیر حمدا یوافی
نعمه وشکرا یکافی کرمه علی أن أدانها فریضة مشکلة واحصاءها خارج عن
الطاقة البشریة ، مقربین بالغذر راجین الاعانة منه فی طاعته انه علی ذلك
قدير حسب ما ورد فی الأخبار من الأخبار ان اعتراف العبد بقصور خدمته
لمولاه عند الخفلة سهوا أو من عدم الاقتدار سعیا معدود من أحسن
العبادات والقبول مقوف علی رضائه حال التضرع فی الخلوات اللهم یارب
الکعبة والحرفات ویانور الأرض والسموات أنصر من نصر الدین واحفظ من
حفظ المسلمین ، واكتب السلامة علی كافة الخزاة وهامة المجاهديین

والحجاج والمسافرين في برك وسحرك يارب العالمين • وفرحنا بها نهاية
الميسرة ومششنا بذلك غاية البشاشة ، وابتهجنا من احياء مراسم آباءكم
العظام ، والسلوك بمسلك أجدادكم الكرام روح الله أرواحهم وجمال
أعلى غرف الجنان مكانهم في اظهار المحبة لسكان الأراضى المقدسة من
الفرق الإسلامية ، عملا بمدلول والحب يتوارث واهدائكم لنا ولسائر السادات
والفقراء والصلحاء والعلماء المسرورين بما قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم " خيار أمتي قوم يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويكون سرا
خوف عذاب ربهم بالخداة والعشى في البيوت الطيبة ، يدعون بالسننهم
رغباً ورهباً ويسألون بأيديهم خففاً ورفعاً مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى
أنفسهم كثيرة " • الحديث ، تسعة آلاف افلوريات الجديدة بالسكينة
المحمدية من انفال تلك البلدة العظيمة المعينة تقسيمها في مراسلتكم
اللطيفة ، فعملنا بحسب الاشارة الشريفة فقبض كل واحد من المستحقين
كل القبض ، وقال الناظرون عليها النرجس الأصفر خير من الأبيض ،
وامتلات أكف الفقراء من الذهب الأصفر فصاروا كطالبى الأكسير الواصلين
الى الكبريت الأحمر داعين لكم بخلوص الجنان راجين قبوله من الله الملك
المنان كما قال عليه السلام " دعاء المحسن اليه للمحسن لا يرد " حامديسن
الله على أنعمه في الأيام وساعاتها عملاً بما قال عليه السلام " الحمد على
النعمة أمان من زوالها والمسؤل من فضل الله الكامل أن ينالكم خير الدارين
الحاجل والآجل كما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم " جنة عدن في السما
العليا لا يدخلها الا نبي أو صديق أو امام عادل " الى آخر الحديث •
والملتص من جنابكم السامى أن يحيط علمكم على أحوال فقراء هذه الديار

بالأصل والفرع ، ويزيد لطفكم على الضعفاء للمتمكنين بواد غير ذى زرع ابتغاء
لمرضاة الله يوم معاده كما قال عليه السلام " خصلتان ليس فوقهما شيء من
الخير الايمان بالله والنفع لمعاده " . وحققنا مع الحاجى زين الدين
المشار اليه قدوة الصلحاء والمتورعين مولانا نجم الدين السيوطى زاد الله
تقواه لينوب مناينا فى تقبيل سدتكم السنية ~~وقتلهم~~ عتبتكم العلية ، وأتحفنا
لخدمتكم برق باب مكة المعظمة ، والأقمشة الهندية المتنوعة ~~سبع~~
طقوزات وعشرين شاشاة المبلولة بما زمرم رؤس ركة معلمة طائفة فى الهوى
كحمامة الحرم فالموجو من نواب أبوابكم العالية الانعام بالقبول والحمد
عند كرام الناس مقبول أدامكم الله وأيدكم بالدولة القاهرة والسلطنة الباهرة
الى يوم الدين آمين .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- ابن الأثير (على بن أحمد بن أبي الكرم ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) :
الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزء ، القاهرة ١٣٠٣ هـ .
- ابن اياس الحنفى (محمد بن أحمد ، ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢٥ م) :
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الجزء
الأول ، القسم الثانى ، فيسبان ، القاهرة سنة ١٩٧٤ م .
- ابن تخرى بردى (جمال الدين أبى المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) :
النجوم الزاهية فى ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الثالث عشر
والجزء السادس عشر ، تحقيق جمال الدين الشيال وفهيم محمد
شلتوت ، القاهرة ، سنة ١٣٩٢ هـ / سنة ١٩٧٢ م .
- ابن حجر العسقلانى (الحافظ شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على ، ت
٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) :
أنباء الخبر بأبناء الحر ، تحقيق حسن حبشى ، ثلاث أجزاء ،
القاهرة سنة ١٩٦٩ — سنة ١٩٧٢ م .
- ابن عرشاه (الحنبلى
ت ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م) :
تاريخ تيمور ، مخطوط بمكتبة محمد حفيد أفندى باستانبول
رقم ٦٠٧ ، خط عربى .
- البكرى (محمد بن أبى السرور ، ت ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م) :
المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، مخطوط مصور على ميكروفيلم
بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم ١٦٢٣ .

- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ، ت ٣٦٠ هـ / ٩٢٢ م) :
تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الخامس ، تحقيق محمد أبو الفضل
ابراهيم ، القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- الحصى (عبد الملك بن حسين المالكى ، ت ١٠٤٩ هـ / ١١١١ هـ) :
سمط النجوم العوالى فى أنباء الأواخر والتوالى ، ج ٤ ، ط
القاهرة ، سنة ١٩٧٣ م .
- فريدون بك (مجموعة منشآت السلاطين) المجلد الأول ، بمكتبة السلیمانیة
باستانبول رقم ٣٢٦٩ .
- مجهول : (سلوك سبيل الرشاد للسلطان مراد ، (يشتمل على تاريخ
سلاطين آل عثمان) مخطوط بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة ، رقم
٣١٢ / ١٠٢٤ .
- مجهول : (تاريخ آل عثمان) مخطوط بالمكتبة السلیمانیة باستانبول
رقم ٨٣٢ .
- مسلم : (الامام أبو الحسن مسلم بن الحجاج نيسابورى ، ت ٢٦١ هـ /
٨٧٤ م) :
صحیح مسلم ، الجزء الثامن ، القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

— المقدسى الحنبلى (زين الدين موسى يوسف بن أبى بكر الكرى ، ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م) :

قلائد الحقيان فى فضائل آل عثمان ، مخطوط مصور على ميكروفيلم ،
مصور عن مكتبة شستريتى تحت رقم ٥٢٩٨ ، موجود بمركز البحث
العلمى ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، مكة المكرمة .

— المقرئى (تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) :
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الرابع فى ثلاثة أقسام
تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ م .

ثانياً : المراجع العربية والمترجمة :

— ابراهيم عبد القادر المازنى

تاريخ الدولة العلية ، ط القاهرة .

— ابن زينى دحلان : السيد أحمد بن السيد

الفتوحات الاسلامية ، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى ،
القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ / سنة ١٩٠٥ م .

— أبو الحسن الندوى

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الطبعة العاشرة ،
القاهرة سنة ١٣٩٤ هـ / سنة ١٩٧٤ م .

— أحمد راسم رسلوى

خريطة لى عثمانلى تاريخى ، الجزء الأول ، ط استانبول .

— أحمد شلبى

دراسة تحليلية شاملة للتاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
القاهرة سنة ١٣٨٩ هـ / سنة ١٩٦٩ م .

— ادوارد جييون

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، الجزء الثالث ،
ترجمة محمد سليم سالم ، القاهرة سنة ١٣٨٩ هـ / سنة ١٩٦٩ م .

— اسماعيل سرهنك

حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الأول ، القاهرة
سنة ١٣١٢ هـ / سنة ١٨٩٤ م .

— أنور الجندى

الاسلام وحركة التاريخ ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥ م .

— أومان

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة مصطفى طه بدر ، القاهرة
سنة ١٣٧٣ هـ / سنة ١٩٥٣ م .

— بروكلمان (كارل)

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي ، بيروت
سنة ١٩٥٥ م .

- توماس أرنولد
الدعوة الى الاسلام ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠م .
- جودت باشا
تاريخ جودت باشا ، الجزء الأول ، ط استانبول .
- دائرة المعارف الإسلامية
الموسم الثاني
- رنسمان ستيفن
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز المريني ، الجزء الأول ، بيروت سنة ١٩٦٧م .
- ساطع الحصري
البلاد العربية والدولة العثمانية ، الطبعة الثانية ، بيروت ، سنة ١٩٦٠م .
- سالم الرشيدى
محمد الفاتح ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٦٩م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور
* الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة سنة ١٩٦٣م .
* أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، القاهرة سنة ١٩٦٦م .

— شاكرا الحنبلى

التاريخ العثمانى ، ط دمشق ، سنة ١٩١٢م .

— شكيب أرسلان

حاضر العالم الاسلامى ، جزءان ، بيروت سنة ١٩٧٣م .

— عبد الباسط الفاخورى

تحفة الأنام مختصر تاريخ الاسلام ، بيروت سنة ١٩٠٩م .

— عبدالعزيز الشناوى

أهرام فى مطلع العصور الحديثة ، الجزء الأول ، القاهرة ،
سنة ١٩٦٩م .

— عبدالعزيز نوار

الشعوب الاسلامية ، بيروت سنة ١٩٧٣م .

— عزيز سوريال عطية

العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة فيليب صابر يوسف ،
القاهرة ، سنة ١٩٧٢م .

— عهد القادر أحمد اليوسف

الامبراطورية البيزنطية ، بيروت ، سنة ١٩٦٦م .

— على سفيمن ويشار يوجل

الأتراك والاسلام ، سلسلة كتب شهرية تصدر بالكويت .

— فائق الصواف

العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، القاهرة ، سنة

١٩٢٨م .

— فتحي عثمان

الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال

الحضارى ، الجزئين الثانى والثالث ، القاهرة سنة ١٩٧٢م .

— فيشر

تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة

وآخرين ، القسم الثانى ، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٥٧م .

— فيليب حتى

خمسة آلاف سنة فى تاريخ الشرق الأدنى ، المجلد الثانى ،

بيروت ، سنة ١٩٧٥م .

— محمد جميل بيمهم

فلسفة التاريخ العثمانى ، الجزء الثانى ، بيروت سنة ١٩٢٥م .

— محمد عبد المنعم السيد الراقده
الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، القاهرة
سنة ١٩٦٨م .

— محمد فريد بك
تاريخ الدولة العلية العثمانية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ،
سنة ١٨٩٦م .

— محمد فؤاد كوبرلى
قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة
سنة ١٩٦٧م .

— محمد كمال الدسوقى
الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة سنة ١٩٧٦م .

— محمود شيت خطاب
محمد الفاتح ، مجلة رابطة العالم الاسلامى ، العدد التاسع ،
السنة الخامسة عشرة ، رمضان سنة ١٣٩٧هـ / سنة ١٩٧٧م .

— محمود محمد زيادة
دراسات فى التاريخ الاسلامى ، القاهرة ، سنة ١٩٦٨م .

— نبیه عاقل
الامبراطورية البيزنطية ، دمشق سنة ١٩٦٩م .

- نورمان بينز

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس وآخرون ، القاهرة ،
سنة ١٩٥٠ م .

- هامرتن جون

تاريخ العالم ، المجلد الخامس ، ط القاهرة .

- هسي

العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد المجيد ، القاهرة سنة
١٩٦٩ م .

- يوسف آصاف

سلاطين آل عثمان ، ط القاهرة .



ثالثا : المراجع الأوربية :

- Ashour and Rabie, Fifty documents in Medieval History, Cairo, 1971.
- Alderson (S.D.): The structure of the Ottoman Dynasty, Oxford, 1959.
- Atiya (A.S.): The Crusade in the later Middle Ages, London, 1938.
- Cahun (L.): L'introduction a l'histoire de l'Asie, Paris, 1996.
- Creasy (E.S.): History of the Ottoman Turkes, Beirut, 1961.
- Diehl (C.): History of the Byzantine Empire, Princeton, 1925.
- Diehl (C), Marcais (G): Le Mond Oriental de 395a 1081, Paris, 1936.
- Fisher (S.N.): The Middle East History, London, 1971.
- Gibb (H.A.R.): The Damascus Chronicle of the Crusades, London, 1932.
- Gibb (H.A.R.) and Harold Bowen: Islamic Society and the West. Vol.I, London, 1950.

- Gibbon (E.): The History of the Decline and fall of the Roman Empire Vol. 6 & 7, Oxford, 1929.
- Gibbons (H.A.): The Foundation of the Ottoman Empire, Oxford, 1916.
- Hidden (A.W.): The Ottoman Dynasty, New York, 1912.
- Hogarth: The Balkans, Paris, 1915.
- Inalcik (H.): The Ottoman Empire, London, 1973.
- Jones (A.H.M.): The Decline and fall of the Roman Empire, London, 1955.
- Jouanin, Vangover: L'univers Turquie, Paris 1950.
- Lane - Pool (S.): Turkey, London, 1888.
- Lodge (R.): The Close of the Middle Ages, London, 1922.
- Marriott (J.A.R.): History of Europe, London, 1937.
- Mijattovich (C.): The last Emperor of the Greeks, London, 1892.
- Miller (W.): The Balkans, London, 1908.
- Orton (C.W.P.): Outlines of Medieval History, Cambridge, 1924.
- Ostrogorsky (C.): History of the Byzantine State, Oxford, 1956.
- Peter (C.): Economic Factors in the Decline of the Byzantine Empire, (Journal of Economic History, No. 13, 1953. P. 412 - 424).

- Paul (W.): The Rise of the Ottoman Empire, London, 1938.
- Shaw (S.I.): History of the Ottoman Empire and Modern Turkey,
Vol. I, Cambridge, 1976.
- Stavrianos (L.S.): The Balkans Since 1453, New York, 1953.
- Stephenson (C.): Mediaeval History, New York, 1943.
- Thompson (J.W.): The Middle Ages, Vol. 2, London, 1931.
- Tout (T.F.): The Empire and the Papacy, London, 1924.
- Vasiliev (A.A.): History of the Byzantine Empire, Modison Wise,
1952.
Historire de L'Empire Byzantine, Tome 2, Paris,
1932,
- Vryonis (S.J R): Byzantium: The Social Basis of Decline in the
Eleventh Century, (Greek, Roman and Byzantine Studeis,
Vol. II, 1959.
- Workman (H.B.): The Evolution of the Manastic Ideal, London, 1957.
- The Cambridge History of Islam I, The Central Islamic Lands,
Cambridge, 1970.
- The Cambridge Mediveal History 8 Vols, Cambridge, 1963.

الفهرس

المفهرس

الصفحة	الموضوع
أ — هـ	* التمهيد
٢٠ — ١	* المقدمة : مقومات حركة الجهاد العثماني ضد البيزنطيين
٥ — ٣	— الموقع الجغرافي
١٦ — ٦	— الطبيعة العسكرية
٢٠ — ١٦	— الدوافع الدينية
٥٣ — ٢٢	* <u>الفصل الأول : استيلاء العثمانيين على غاليلولى ومداينة</u> <u>التوسع العثماني في البلقان</u>
٤٧ — ٢٢	— عوامل اضمحلال الدولة البيزنطية عند منتصف القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى
٥٠ — ٤٨	— دور مدينة غاليلولى فى جهاد العثمانيين ضد البيزنطيين
٥٣ — ٥١	— استعانة الامبراطور البيزنطى حنا الخامس بالغرب الأوروبى ضد العثمانيين
٩٠ — ٥٥	* <u>الفصل الثانى : العثمانيون وحركة الالتفاف حـــــــول</u> <u>القسطنطينية</u> :
٥٨ — ٥٥	— استيلاء العثمانيين على أدونه ٧٦٦ هـ / ١٣٦٥ م واتخاذها عاصمة

الصفحة	الموضوع
٦٠-٥٨	- استيلاء العثمانيين على مقدونيا - ٧٨٤ هـ / ١٣٨٠ م
٦٩-٦٠	- انتصار العثمانيين في معركة كوسوفا
٨٤-٧٠	- انتصار العثمانيين على التحالف البيزنطي الأوروبي في موقعة نيقوموليس ٧٩٨ هـ / ١٣٩٦ م
	* <u>الفصل الثالث : جهاد السلطان مراد الثاني (٨٢٤ -</u>
	<u>٨٥٥ هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١ م) ضد</u>
١٣٣-٩٢	<u>البيزنطيين:</u>
	- حصار العثمانيين للقسطنطينية ٨٢٥ هـ /
١٠١-٩٤	١٤٢٢ م ونتائجه
	- استعانة الامبراطور حنا الثامن بالقوى
١٠٨-١٠٧	الأوروبية ضد العثمانيين
	- هزيمة حملة صليبية أوروبية في موقعة فارنا
١٢٥-١٠٨	٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م
١٧٤-١٣٤	* <u>الفصل الرابع : السلطان محمد الثاني وفتح القسطنطينية:</u>
	- أحوال الدولة البيزنطية قبيل حصار
١٣٩-١٣٨	العثمانيين للقسطنطينية
	- استعدادات السلطان محمد الثاني لفتح
١٦٨-١٤٢	القسطنطينية
	- موقف القوى الأوروبية من الغزو العثماني
١٤٢-١٣٩	للقسطنطينية
١٧٤-١٦٩	- انتصار الاسلام وسقوط القسطنطينية

الصفحة	الموضوع
١٧٩-١٧٦	* الخاتمة
٢٠٥-١٨١	* الملاحق:
١٨٣-١٨١	- الملحق الأول : رسالة السلطان مراد الثاني إلى سلطان مصر الأشرف برسباي يخبره وممنه بفتح قلعة سلانيك على يديه ويعزيه في موت ولده يوسف
١٩٠-١٨٤	- الملحق الثاني : رسالة السلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر الأشرف اينال يخبره فيها بفتح القسطنطينية
١٩٧-١٩١	- الملحق الثالث : جواب سلطان مصر إلى السلطان محمد الفاتح
٢٠١-١٩٨	- الملحق الرابع : رسالة السلطان محمد الفاتح إلى شريف مكة (وقد أرسلها إليه عن طريق سلطان مصر
٢٠٥-٢٠٢	- الملحق الخامس : جواب شريف مكة إلى السلطان محمد الفاتح
٢١٨-٢٠٧	* قائمة المصادر والمراجع
٢٠٩-٢٠٧	- أولا : المصادر
٢١٥-٢٠٩	- ثانيا : المراجع العربية والمترجمة
٢١٨-٢١٦	- ثالثا : المراجع الأوربية
٢٢٢-٢١٩	* الفهرس